تأملات

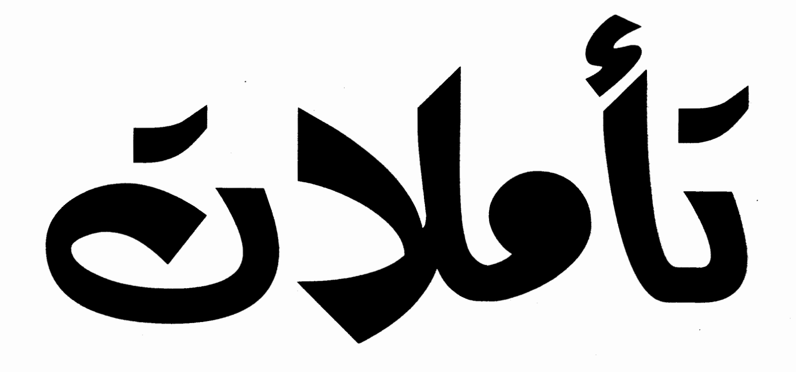
محمد سعيد الشيخ علي الخنيزي





تأملات


بسم الله الرحمن الرحيم



محمد سعيد الشيخ علي الخنيزي



دار روافد

١٤٣٦هـ/ ٢٠١٥م

isbn 978-614-426-504-8



دار روافد

للطباعة والنشر والتوزيع

بيروت - لبنان

ت: 71/868980

darrawafed@yahoo.com



أطياف للنشر والتوزيع

هاتف/ فاكس : ٨٥٤٩٥٤٥ (٣) ٩٦٦+

جـوال : ٩٦٦-٥٠٥٨٦٨٧٧١+

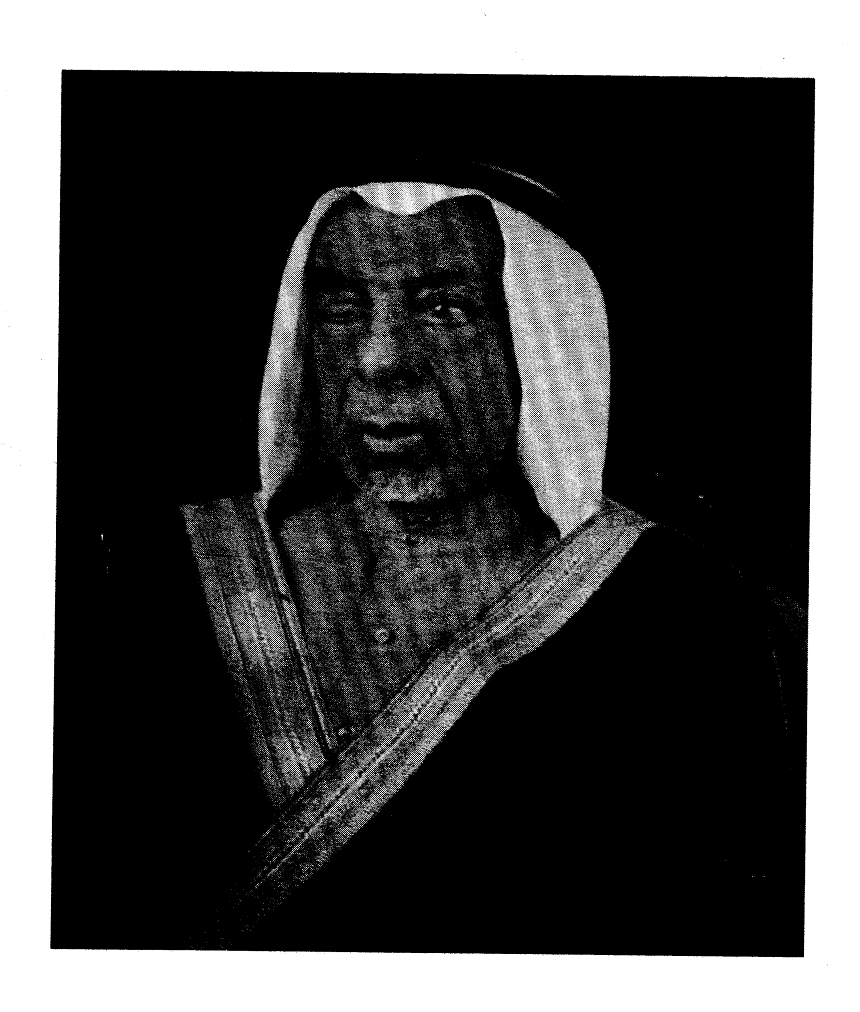
القطيف - شارع القدس

ص. ب : ٦١٢١٥ القطيف ٣١٩١١

المملكة العربية السعودية

E mail: atyaf pd@hotmail.com

صورة المؤلف



مدخل

لعل من السوانح والخواطر التي تطوف بآفاق نفسي وتلحُ عليَّ وتسايرني في حركاتي وسكناتي هي خاطرة تصور لي ما أقرأه من كتب أو أشعار لمعاصرين أو لماضين سبقوا قرننا بقرون تمثل لي بعض الملاحظات والآراء أن أدونها في كتيب أسجلُ في صفحاته مرئياتي حول ذلك الكتاب أو ذلك الشاعر الذي عصر روحه في حروف سكبها عصارة عقله، فإذا مررنا به وقرأنا تلك الأفكار سواء أعجبنا بها أو لم نعجب بها أو لتطاول الزمن عليها حتى عفّى عليها غبار الدهر، وهي مصفوفة في رفوف المكتبة لا تحركها أنامل، ولا تقرأها عين، وهذا الإهمال الفظيع يضر بتراثنا الفكري لماذا لا نخصص وقتاً لنقرأ ماضينا فنشاهد بعض صوره تتمثل بحاضرنا وإن اختلف الزمن وتطورت الحياة، ولعل بعض الأفكار لا تواكب عصرنا اليوم فالحياة في مسيرها الطويل تتجدد وتتطور مع تجدد الشمس والليل والنهار ولكنه تراث من تراثنا الفكري خلَّفه لنا العباقرة من المفكرين، فذلك التراث يمثل ذلك العصر الذي عاش فيه ذاك المفكر، وسواء كان تراثه مرآة ينطبع

عليها ظلال ذلك العصر أو لا ينطبع عليها إلا ظلاً باهت تنسخ في لحظات كما تنسخ الشمس ظل الصباح، ولكنه تراث نفخر به ونعتز بماضينا فيجب علينا الإشادة به والاحتفاء به جزاءً لهذه الجهود المضنية، وجب علينا أن نقرأها ونأخذ منها بعض العبر والتجارب التي مرت عليهم في حياتهم ومرّوا بها لنستفيد منها ونجازيهم بدراستنا لحياتهم وإعادتهم إلى الحياة من جديد لأنهم لم يموتوا، وإن بليت أجسادهم فإن أفكارهم ماثلة في كتبهم، فمن الواجب أن نبذل في سبيل تجديد حياتهم الفكرية الجهود والعناية بتلك الكتب والدراسة عنهم، والنقد.. النقد البنّاء الذي لا يهدف لميول عاطفية أو سياسية، وأن يكون النقد.. للنقد لا لشيء آخر.

فمن لا ماضي له لا حاضر له فإن الحاضر حلقة ترتبط وتمتد بالماضي، لقد خرجتُ عن الخاطرة التي أردت أن أشير إليها ولكنني في الحقيقة لم أخرج عن مساري، فإن هذا الحديث هو من صميم خاطرتي فالتراث الفكري هو أثمن شيء لأنه جوهر الفكر.. الفكر الذي لا يحدد بزمان أو مكان أو ببيئة أو بقارة دون أخرى علينا ألا نكون منغلقين نتقوقع في قمقم ضيق وأفق غير رحب منكمشين على أنفسنا لا نقرأ إلا نوع خاص من الفكر، كبعض الشعر إذا كان يتعلق بالمبادئ الإسلامية وما

عداه فلا نقرأه ولا نراجعه أو مثلاً لا نقرأ إلا كتاباً يتعلق بالدين فهذا ضيق أفق، علينا أن نبدأ بكتبنا التي تعالج مبادئنا الإسلامية ونعطيها قسماً ضرورياً من الوقت، ولكننا نتوسع فنقرأ الأدب الأنكليزي أو الفرنسي وكل فكر استطعنا أن نصل إلى أفقه وسمح لنا الزمن بمطالعته لنخرج بمادة ثقافية ونحيط بكل ما كتبه المفكرون عن الإسلام وعن العرب وما رأيهم حول ذلك، فنرد عليهم بأسلوب تحاوري وبنقد منطقي، فلا حرج على المسلم أن يفتتح حياته العلمية أو الأدبية وتطالعاته الأولية أن يفتتحها بتعرفه وقراءته لمبادئ الإسلام وسيرة الرسول وأهل بيته بصفته مسلماً مسؤولاً عن تاريخه الأولي أو بالأحرى عن حياته الدينية، ثم ينطلق إلى آفاق واسعه بعد أن تسلح بالمبادئ الصحيحة الإسلامية.

وهنا أعود بعد هذه التوطئة التعريفية لما أريد أن أسجله من خاطرات تخطر لي عندما أقرأ بعض الكتب فأسجلها في مرئياتي وأجسدها في حرف من هذه الحروف راجياً من الله المدد والتوفيق والعون فإنه هو المعين وحده لا شريك له ونحمده على ما أعطى وألهم فإن ألطافه ونعمه لا تحصى فله الشكر وله الحمد.

١٠/٣/١٤٣٠ هـ

٧ / ٣/٢٠٠٩ م

ابن زيدون

نشر في مجلة الواحة العدد الخامس والخمسون ـ السنة الخامسة عشرة ـ ٢٠٠٩م

عشت مع ابن زيدون أياماً أسامره في ديوانه، وابن زيدون الشاعر الذي عرف ونبغ وسطع نجمه في سماء قرطبة وأشبيلية، هو أحمد بن عبد الله بن أحمد بن غالب بن زيدون المخزومي: بطن من بطون قريش، ولد في عام ٣٩٤ هـ بالرصافة، من ضواحي قرطبة، وكان له دور في الشعر والأدب، وفي ميدان السياسة في قرطبة وأشبيلية، حيث تولى منصب الوزارة عدة مرات، وكانت الدولة ترسله ممثلاً لها في بعض المؤتمرات السياسية، فيمثلها خير تمثيل ، فعاش بين أشبيلية وقرطبة يمدح حكامها ويتمتع بما يغدق عليه حكام عصره، وفي ذروة حياته التي حظي بها عند الحاكم حتى لقبه ذو الوزارتين أتهم بالخيانة الكبرى، وهو إسقاط الحكم، وإنشاء دولة جديدة تخلف الدولة السابقة، وهذه جريمة لا تغتفر، فزج به في السجن، وبعد تضرع منه صاغه في قصائد من شعره بواسطة ابن الحاكم حتى أطلق من ذلك السجن وعاد لحياة اللهو والطرب، ولقيثارة الشعر يعزف عليها ألحان الحب فصور في حياته ألواناً من الشعر، استلهمها من سماء قرطبة وإشبيلية فهما مدينتان تتجلى فيهما الطبيعة في أبدع زينتها وتتبرجان

بجمالهما، فهما متعتان للناظرين، وقصيدتان ألفت حروفها من جمال سحري يسمر الأبصار، فكيف بالشعراء الذين يحسون بسحر ذلك الجمال ويشربون من أسراره كؤوساً شفافة تفيض عليهم قصائد شعرية وأوتار غنائية.

وكان لابن زيدون علاقة غرامية بولّادة بنت المستكفي (الأموي) كما حدثنا التاريخ عن تلك العلاقة وذلك الحب الذي ذاب فيه ابن زيدون وانحل في سحره كما تذوب ذرات الشمس في الشمس فالتاريخ يحدثنا كما يحدثنا ابن زيدون في شعره عن هذه العلاقة الغرامية وكيف نشأت وكيف كان أول لقاء صوره الشاعر فاسمعه يتحدث عن تلك الليلة التي لا يحسبها العشاق من أعمارهم وإنما يرونها من أسعد أيام العمر، ومن أحلى عرس الليالي، وهي فلتة من فلتات الدهر قد لا تتكرر وربما تكررت عند بعض السعداء الذين يرون العشق سعادة، فالشاعر وصف أول لقاء بحبيبته ولادة فهو يتحدث ويصف ذلك اللقاء وذلك الجمال، وكيف استقبل حبيبته غصناً وريقاً وأريجاً يضوع ووردةً لا كالورود، إنما هي تفضل تلك الورود التي نشمها وكيف قضيا تلك الليلة في إحدى الروضات من روضات قرطبة، وعندما غنت لهم عُتبَة جارية ولادة فأسكرتهما فشربا من خمرة الحب ومن

ألحان الغناء، فهما صبّان متيمان لا يحسان بالزمن فكانت الساعات تمر عليهما أقصر لياليهما في ذلك العمر، فطلب من عتبة الإعادة فظهر على ملامح ولادة عدم الإرتياح فكان بينها وبين حبيبها ابن زيدون عتاب مُرّ طويل سنشير إليه ولكنَّ ابن زيدون لم يفته هذا الموقف موقف عتبة جارية ولادة فصوره في هذين البيتين:

أحِبَّتنا إني بلَغْتُ موَمَّلي
وساعَدَني دَهري وواصَلَني حِبِّي
وجاء يُهَنِّيني البشيرُ بِقُربِهِ
فأَعطَيْتُهُ نفسي وَزِدتُ لهُ قلبي

واستمر العتاب بينهما حتى صورته ولادة في قطعة شعرية تجسد موقفها وغيرتها من جاريتها فاسمعها وهي تخاطبه:

لو كنتَ تُنصِفُ في المودة ما بيننا
لَمْ تَهْوَ جاريتي وَلَمْ تَتَخَيَّرِ
وتَرَكْتَ غُصناً مُثْمِراً بجمالِهِ
وجَنَحْتَ لِلغُصْنِ الذَّي لَمْ يثمِرِ

وَلَقَــدْ عَلِمْتَ بِأنــني بَدْرُ السَّمــا

لكنْ دُهيتُ لِشَقوتي بالمُشتري

هكذا الغيرة الأنثوية التي تثور عند أدنى لمسة شفافة تراها تجرح حبها وتنافسها في عشيقها، وقد وصف الشاعر ابن زيدون تلك الليلة في إحدى رسائله النثرية التي نسبت إليه، وفي قطعة شعرية منها، فاسمعه يتحدث معنا من وراء جدار التاريخ:

ودِّعَ الـصبـر محبٌّ ودَّعـكْ

زائِعٌ مِنْ سـره ما استـودعكْ

يقرَعُ السِّنَّ على أنْ لمْ يكن

زاد فـي تلك الخُطا إذْ شيَّعَكْ

يا أخـا البــدرِ سنـاءً وسناً

حَـفِـظَ اللهُ زمـانـاً أطـلَعَـكْ

إنْ يَطُلْ بَعدَكَ ليـلي فَلَكَمْ

بِتُ أشكـو قِصَرَ الليـلِ معكْ

إنّ هذه القطعة الموسيقية التي تصور اللقاء والفراق وكيف كانت تلك الليلة التي تشاكى فيها الحبيبان قصرها، كما

يشكيان في ليالي الهجر مرارة طولها، فهما مسهدان على جناح ألم ولهفة للّقاء، كما صور ابن زيدون ساعة الفراق فراق الحبيبين الذي لا يدري هل يكون بعد تلك الليلة السعيدة التي التفَّ فيها الحبيبان في حياة شوقٍ وبُرْد هوىً يلفهما من رأسيهما إلى قدميهما، أو قل هما سران في خاطر الظلماء ولولا لسان الفجر لما كشفهما أحد، وهذا مشهد من مشاهد الشعر الغرامي.

فاستمرت العلاقة الغرامية بين ابن زيدون وولادة حتى أفسد ما بينهما الوشاة كابن عبدوس حينما تولى الوزارة وأغدق على ولادة بسخاء منقطع النظير، فهجرت ابن زيدون ورفضته وصار يتذلل لها تذلل العبد لمولاته وهي ترفضه وحتى عرَّض بابن عبدوس وصور ذلك التعريض:

أكلٌ شهيٌّ أصبنا من أطايبه

بعضاً وبعضاً صفحناه إلى الفارِ

غير أن ابن زيدون لم يظفر بولادة حتى نفيَ من قرطبة ولم يهدأ ذلك العشق والحب الذي تكون عن صدق وعن غرام ملتهب في قلب ابن زيدون لا يطفؤه إلا اللقاء، وما أدري هل اللقاء يزيده اشتعالاً أم يخفف من وهج ذلك الحب في قلب ابن زيدون غير أنّ الظروف قست على ابن زيدون فتركته يعيش بعيداً عن ولادة،

فصار يصور ذلك العشق وتلك الفترة التي سعد فيها بولادة فصور تذلله وخضوعه كخضوع عبد لسيده فلنسمعه وهو يناجي ولادة في هدأة الليل لعل نسائم الحب توصل تلك النجوى.. نجوى قلبه إلى قلب ولادة:

يا نازحاً وضميرُ القلبِ مثواهُ

أنستكَ دنياكَ عبداً أنتَ مولاهُ

ألهَتْكَ عنه فُكاهاتٌ تلذُّ بها

فليس يجري ببالٍ منكَ ذِكراهُ

عَلَّ الليالي تُبَقِّيني إلى أملٍ

الدَّهرُ يعلمُ والأيَّامُ معناهُ

فهذه السيمفونية تصور الهجر المرير الذي يقاسيه العشاق عندما يفارقون معشوقيهم ويزيد وهج النار إذا كان الحب من طرف واحد، فالذي نتصوره ونقرأه من صفحات التاريخ ومن شعر ابن زيدون يصور الغرام والحب من ابن زيدون لا من ولادة، فابن زيدون قيس بلا ليلى أما ولادة فلم تكن ليلى إنما كانت تُزَجّي فراغاً وتقضي سهراتٍ، فمن البليِّة أن تحب من لا يحبك فالويل لمحب لا يبادله حبيب ذلك الحب، سيظل يعيش في شقاء ووهج نار

لا يطفؤها عنه أحد ولا يخففها إلا ذلك الحزن الطويل الذي يحول حياته إلى نغص وشقاء مرير، ولهذا الحب العميق لم يهدأ ابن زيدون حتى كتب قصيدة يصف فيها ألم ساعة الفراق، فكانت من الشعر الجريح الذي ينز من قلب مُوَلَّه يشتعل وهجاً، فإن الفراق مر المذاق ولا سيما عندما يفترق حبيبان على أمل اللقاء فكيف بفراق لا لقاء بعده:

فما صبابة مشتاق على أمل

من اللقاء كمشتاقٍ بلا أملِ

فالقصيدة التي أشرنا إليها هي لوحة من اللوحات الفنية وصورة من صور الحب التي جاءت لتعيش وتخلد، فهي تصور كيف كان الحبيبان يعيشان في جو هناء وسعادة لا يخشيان فراقاً وهجراً طويلاً وإبعاداً قاسياً، واليوم يعيشان وهْماً وهَمًّا ولا يرجوان لقيا، بل يعيش ابن زيدون مقصى عن قرطبة، وكلما حاول أن يعود إليها نثر في طريقه الموت فأصبحت طريقه ملغومة بألغام إذا مر فيها تنفجر فتقتله، فهاج به الشوق وألَّمه وهج الفراق وكتب هذه القصيدة وأرسلها إلى ولادة وكيف أرسلها أجهل ذلك، ولم أقف شخصياً في التاريخ على طريقة الإرسال ويتخيل لي عندما قرأتها ولادة هزها هذا الشعر هزاً عنيفاً، وسكرت بتلك الخمرة وشربت

من كؤوس حروفها الشفافة أحلاماً وأحلاما، وهل انتفضت عواطفها وعادت لابن زيدون تبادله حباً بحب لا أتصور ذلك، فالحب جاء من ابن زيدون فحسب، لذلك أصبح في عذاب لا يرق عليه حبيبه ولا يرحمه فاسمعه يتحدث:

أضحى التَّنائي بَديلاً مِنْ تَدانينا

وناب عَنْ طِيبِ لُقيانا تجافينا

ألا وقَدْ حانَ صُبْحُ البَيْنِ صَبَّحَنا

حَيْنٌ فقَامَ بِنا لِلحَيْنِ داعِينا

وقفة معي لنتحدث مع ابن زيدون وإن كانت وقفة قصيرة، كيف قسا عليك الزمان فأبدلك بالقرب بعداً وليس هو بعد كبعد بعض العاشقين إنما هو نفيٌّ إلى محل آخر يفصل بينك وبين الحبيب آلاف الأمتار فأين إشبيلية من قرطبة فأنت غريب الروح، غريب القلب والجسم، تعيش في آلامك وحدك تشرب من كؤوسها صاباً يسهِّدك كتسهيد النجوم، ثم يصف كيف فرقهم الزمان عندما حان صباح الفراق فصبحهم بليل لا فجر فيه فكأنما غشيهما الموت وحان حينهما ويستمر ابن زيدون في قصيدته العصماء، إنّ الزمان الذي قد كان يضحكهما ويأنسهما بقربهما عاد يبكيهما، ولكن أي بكاء.. بكاء عاشقٍ فاقدٍ لعشيقه،

فيوغل الشاعر ابن زيدون في قصيدته فيأتينا بزخم وإبداع، فيصف الصورة التي عاشها مع ولادة، فكأنهما سران في خاطر الظلماء يكتمهما الظلام ولا يفيقان إلا على ذلك الفجر.. الفجر الذي لا يريدان أن ينبلج، فقال:

سِرَّانِ في خاطرِ الظلماءِ يكتُمُنا

حتى يكادَ لسانُ الصُّبحِ يُفشينا

****

ويستمر في هذه القصيدة في صورها الإبداعية التي صورت حياتين حياة وصل فيها فرح وهناء، وحياة هجر مرير ونأي قاسٍ فيها جحيم وتسهيد كتسهيد النجوم:

وقد نكون وما يُخشَى تفرقنا

واليوم نحن ولا يرجى تلاقينا

ما هذه الصورة ؟ إنها إبداع ووصف فيه زخم إنهما عاشا في حياة الحب والغرام، ولم تدر خاطرة في فكريهما أو في حياتهما أن تأتي لحظة يفرقهما فيها الزمان، فلا يخشيان البعد أو الإنفصال من هذه الحياة، واليوم هما ولكنهما يائسا من اللقاء ولا يرجوانه حتى ينتهيا من هذا الكوكب المسمّى بالأرض.

ويختم قصيدته فيها وفاءً لحبيبته وذكرى لحِبه تعيش في قلبه تلتهب مع الصبابة مادام يعيش على هذا الكوكب المسمّى بالأرض، وهكذا الأوفياء الذين يوفون لمن يغدر بهم، فقال:

عليكِ منَّا سلامُ الله ما بقِيَتْ

صبابةٌ بكِ نُخفيها فتُخفينا

إنّ لابن زيدون مع ولادة نفحات غرامية وسيرة فيها لهفة واشتياق حلو ومرير، وقد كتب فيها قصائد غرامية ولعل أحسن ما في شعره قصائده التي تتحدث عن غرامه بولادة لأنها قصائد ولَّدَها حب وبعثتها لهفة فقال:

باعدْتِ بالإعراضِ غيرَ مُباعِدِ

وزَهَدْتِ فيمَنْ ليسَ فيكِ بزاهِدِ

وَسَقَيْتني مِنْ ماء هَجْرِك ما لَهُ

أصبَحْتُ أَشْرَقُ بالزُّلالِ البارِدِ

هَلَّا جَعَلْتِ ـ فدتكِ نفسي ـ غايةً

للعتبِ أبلُغُها بِجَهْدِ الجاهدِ

لا تُفسِدَنْ ما قد تأكَّدَ بَيْننا

مِنْ صالحٍ خَطَراتُ ظنٍّ فاسِدِ

حاشاك مِنْ تَضييعِ أَلفِ وسيلـةٍ

شـجِيَ الـعَدُوُّ لهـا بِذَنْبٍ واحِـدِ

إنْ أجنِـهِ خَـطَأً فقـدْ عـاقَبْتـني

ظُلماً بِأبْلَغَ مِنْ عِقابِ العامِدِ

عُودِي لَمـا أَصفَيْتِنيهِ مِنَ الهـوى

بدءًا فلسْتُ لِـمَا كَرِهْتِ بِعـائِدِ

وَضَعي قِناعَ السُّخطِ عَنْ وَجهِ الرِّضا

كيمـا أَخِرَّ إليْهِ أوَّلَ سـاجِـدِ

وابن زيدون تفنن في شكواه وكيف يبثُّها وما يعتلج في صدره من حزن لفراق سيدوم طويلاً، وهجراً مريراً، وبعداً لا يرى حبيبته من خلاله إلا في الخيال، فاسمعه وهو يبث نجواه، وشكواه لولادة لعل من ينقل هذه النبرات إلى حبيبته:

مـتى أَبُـثُك مـا بـي؟	يـا راحـتي وعَذَابـي
مـتى يَـنُوبُ لِـساني	في شـرحِهِ عـن كتـابي؟
اللــهُ يَعْلَـمُ أنـّي	أصبـحتُ فـيك لِمَـا بـي
فـلا يَطِـيبُ طعـامي	ولا يَـسُوغُ شـرابي

يـــا فتنـــــةَ المُتَقَـــرِّي	وَحُجَّـــــةَ المُتــــــصابي
الــــشَّمْسُ أنـــتِ تَـــوَارَتْ	عَـــنْ نـــاظري بالحِجـــابِ
مـــا البَـــدْرُ شَـــفَّ سَـــنَاهُ	علـــــى رَقـــيقِ الـــسَّحَابِ
إلاَّ كَوَجْـــــهِكِ لَـــــمَّا	أضـــــاءَ تـــحتَ النِّقــــابِ

وهنـا نطـوي الـسيرة الغراميـة لابـن زيـدون بـولادة وفـي رأيـي أنّ شعره الغرامي في ولادة وتشبيبه بها هو القمة في شعره، ولعله أحسن ما قال لأنه يمثل حياة غراميـة واقعيـة عاشـها ابـن زيـدون وانبثقـت مـن حياته الطبيعية الغرامية بدون تكلف أو رتوش، وزادهـا حرمانـه منهـا والحرمان يشعل العبقرية ويفجر الأفكار ويلهم من ابتليَ به.

وحـديثي عـن ابـن زيـدون قـصرته علـى التعامـل مـع نـصوصه الـشعرية، ولـم أشـر إلـى حياتـه الـسياسية والاجتماعيـة، والظـروف التـي اكتنفـت تلـك الحيـاة، لأنَّ الحـديث قـصر علـى دراسـة توضـيح بيـان الجمـال فـي النـصوص الـشعرية، وإن مررنـا بـأفق مـن حياتـه الغرامية مع ولادة.

١٤٣٠/٣/١٥ هـ

٢٠٠٩/ ٣/١٢ م

دعبل الخزاعي

إن دعبل الخزاعي شاعر من أكبر الشعراء وقد عرف في عصره بشاعريته، وميوله السياسية وانتمائه العقدي بموالاته إلى أهل بيت النبوة فكان ينهل من مدرستهم ويزوق في حبهم كما ينوب الضوء في الضوء، ولم يقف هذا الشاعر على مدح الرسول وآله بل بذل في سبيلهم كل غال ونفيس، وضحى بنفسه فكان شاعراً سياسياً يجهر بعقيدته غير مبال حتى تحدث عنه التاريخ بأحاديث نسجت من الكذب لصقوها بشخصيته وحاكوها ظلماً له، وفي بعض المقولات التاريخية أن دعبل الخزاعي كان يدور بخشبته يطلب من يصلبه عليها وقد هجا الرشيد وهجا المأمون، وعندما أحضره المأمون وسأله عن قصيدته الرائية لم ينكرها وحتى قال يهدد المأمون وهو الحاكم المطلق الجالس على العرش:

أَيَسومُني (المأمونُ) خِطَّةَ عاجزٍ؟

أَوما رأى بالأمسِ رأسَ (محمَّدِ)؟

نُوفـي علـى هَـامِ الخـلائِـفِ مثلما

تُوفـي الجبـالُ علـى رؤوسِ القَرْدَدِ

ونَـحُـلُّ فـي أكـنـافِ كلِّ مُمَـنَّعٍ

حتى نُـذلِّــلَ شاهـقـاً لـم يُصْعَـدِ

إنَّ الـتِـراتِ مُسَـهَّـــدٌ طُلاَّبُـهـا

فـاكـفُف لِعابَكَ عـن لِعابِ الأَسْوَدِ

لا تحسَبَنْ جهلي كحِلم أَبي، فما

حِـلـمُ المـشايخِ مِثْـلَ جَهْلِ الأَمـردِ

إنّي مِـن الـقـومِ الذينَ سُيــوفُـهمْ

قَتَلَـتْ أخـاكَ وشَـرَّفَـتْـك بِمَـقْـعَدِ

رفعُوا مَحَلَّكَ بعـدَ طُولِ خُمُولِـهِ

واستَنْقَذُوكَ مِن الحضيضِ الأَوْهَدِ

كـم مِـن كـريمٍ قَبْـلَهْ وخلَيــفَــةٍ

أضـحى لنــا دَمُـه لـذيــذ المقصِدِ

مِثْلِ (ابن عفَّانٍ) ومثلِ (وليدِهِمْ)

أَوْ مِـثْــلِ (مـروَانٍ) ومِـثْـلِ (محـمَّـدِ)

وقفة معي أيها القارئ لتشاهد كيف يتحدث هذا الشاعر ويخاطب ملكاً حاكماً بأمره يتصرف كيف شاء لا يرده أحد إلا الله، فهو يخاطبه بجرأة أنَّ قومه هم الذين أجلسوه على هذا العرش، وفي حروفه أسلوب مبطن بالتهديد وبالتحقير، فتعد هذه القطعة قطعة سياسية خطيرة بلغت من الجرأة أقصى ما يمكن من شخص لا يبالي بحياته أمام ملك يخاطبه بأسلوب تحقيري، حيث يقول له لولا قومي لبقيتَ مهاناً في هاوية بعيداً عن الأنظار ولكنّ قومي هم الذين أنقذوك من الحضيض وأجلسوك على أعظم مقعد، ولكنك نلت هذا المقعد بسيوفهم لا بجدِّكَ وإلى آخر القطعة فعلى القارئ أن يقرأها ويتأمل ما فيها من معنىً وأسلوب.

وله قصائد سياسية كقصيدته الرائية التي يرثي بها الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام التي يشير فيها إلى قبره حيث دفنه المأمون إلى جنب قبر والده الرشيد، نذكر منها بيتين:

قبران في طوس خير الخلق كلهمِ

وقبر شرِهُمُ هذا من العِبَرِ

ما ينفع الرجس من قرب الزكي ولا

على الزكي بقرب الرجس من ضرر

أليست هذه جرأة نادرة ما فوقها جرأة، إنّ دعبل لا يأمن أن يصل المتزلفون الذين يعيشون على دماء الآخرين كما تعيش البعوض لتمتص دم البشر فيوصلون هذه القصيدة إلى مسامع المأمون وفيها ما فيها من تضحية بنفس دعبل الخزاعي، ولكنه لا يبالي في سبيل عقيدته ولو أراد شاعرنا الثراء لم ينهج هذا المنهج وتزلف لحكام عصره ونافقهم وباعهم ضميره، ولكنه حرٌّ وقليلٌ مثله الأحرار، ومن شاء فليرجع لها في ديوان الشاعر سيجدها قصيدة عصماء رائعة وفيها صور وجرأة سياسية تجهر بما يعتقد به الشاعر بدون مواربة، ولم يخلو شعره من الحِكَمْ والعتب على الأصدقاء الذين هم قليلو الوفاء ولا تجدهم على ندرة فالصديق كطير العنقاء فاسمعه يتحدث:

صبرتُ وكان الصَّبرُ مِنِّي سجيَّةً

وذلك أنَّ اللهَ أثنى على الصَّبرِ

وكنتَ أخي ما دامَ عُودُكَ يابِساً

فلمَّا استوى واخضَرَّ صِرتَ مع اليُسرِ

لعمرُكَ لو ذَوَّقتَني ثَمَرَ الغِنى

أَذَقتُكَ ما يُرضيكَ مِنْ ثَمَرِ الشُّكرِ

فإنْ نلتُ ما يُغني مِنَ اليومِ أوْ غَدٍ

أَنَلتُكَ ما يبقى إلى آخِرِ الحشرِ

ألمْ ترَ أنَّ الفقرَ يُرجى لَهُ الغِنى

وأنَّ الغِنى يُخشى عليه من الفقرِ

أَلمْ ترَ أنَّ البحرَ ينضُبُ ماؤُهُ

وتأتي على حيتانِهِ نُوَبُ الدَّهرِ

وما لكَ يومَ الحشرِ زادٌ سوى الَّذي

تُقَدِّمُهُ قبلَ المماتِ إلى الحشرِ

إذا أنتَ لم تزرع وأبصرتَ حاصِداً

نَدِمتَ على التفريطِ في زَمَنِ البَذرِ

وقفة مع هذا الشاعر لنشاهد في هذه السيمفونية مشهداً متحركاً وشريطاً سينمائياً يصور لنا كيف ظفر الصابرون وكيف أثنى عليهم خالقهم وكيف صبر شاعرنا على صديق مثّله بغصن يبيس فكان يرعاه، وعندما اخضوضر ذلك الصديق أي نعم بالغنى ترك صديقه الذي صبر عليه أيام الفقر.. أيام يبوسه، والشاعر يعاتبه ويطلب منه أن يكون وفيّاً ولو أناله بعضاً من ثرائه

لأناله الشاعر آيات من الشكر، ولكن أيها الشاعر ماذا يصنع هنا بالشكر؟ إن حياة المادي تطغى على كل المعنويات فلا يرى أمام عينيه إلا المادة فقط.. فالمادة هي كيانه وهي حياته، ثم يعظه في مثل رائع فإنّ الفقير يرجى له من الله الغنى كهذا الصديق الذي كان يبيساً فاخضر وإنّ الغنى لا يطغيك ولا تغتر به فيخشى عليه من الفقر، وليس هو أعظم من البحر فإنّ البحر قد ينضب حتى حيتانه تقتلها مصائب الدَّهر وبلاياه، إنها لقطعة رائعة بلغت قمة الزخم في صورها وتعبيرها.

وعندما تتصفح ديوان هذا الشاعر تجد له وثبات العبقرية التي تصهرها الأحداث فتصور ما تعجز عنه العبقريات الأخرى فاسمعه يتحدث أو ينشد صورة حزينة ومأساوية في شريط ماثل أمام عينيك يصور حياة آل البيت آل رسول الله صلى الله عليه وآله وما مر عليهم من ظلامة من الدولة الأموية والدولة العباسية في قصيدته التائية التي شرَّقت وغربت فكانت كالشمس على الدنيا، تملؤها دفئاً وهذه القصيدة أنشدها شاعرها بين يدَيْ الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام، فبكى وأثَّرت فيه هذه الصور الواقعية التي جسد الشاعر فيها أحرفاً ناطقة وحقائق تشير إلى الواقع المرير الذي عاناه أهل البيت وتجرعوا من كؤوسه ما تجرعوا، فهي من الشعر السهل الممتنع

وفيها من الإبداع الفني الذي يعجز عنه الآخرون من البلغاء والشعراء فاحكم عليها أيها القارئ بنفسك:

مدارسُ آياتٍ خلتْ من تلاوةٍ

ومنزل وحيٍ مُقفِرُ العَرَصَاتِ

لآل رسول اللّه، بالخيفِ من منىً

وبالركنِ والتعريفِ والجمراتِ

ديارُ عليٍّ والحسين وجعفرٍ

وحمزةَ والسجَّادِ ذي الثفناتِ

ديارٌ عفاها جَور كلِّ مُنابذٍ

ولم تَعفُ للأيامِ والسَّنواتِ

قِفا نسألِ الدارَ التي خفَّ أهلُها

متى عهدُها بالصَّومِ والصلواتِ

هذه الصورة التي تمثل حياة امتدَّت بالآلام والأحزان والظلم صورها الشاعر في قصيدة طويلة تضج بالظلامة والمأساة فمن شاء فليرجع إليها في ديوانه.

ومنها:

أرى فيئَهُمْ في غيرِهمْ متقسماً

وأيـديَهم مـن فيئهم صَفِـراتِ

إنها صورة من المأساة التي يمثلها هذا البيت إنَّ فيء آل البيت باتَ نهباً في أيدي غيرهم وأكفهم من ذلك الفيء صفرات، وتعبير صفرات كان تعبيراً في غاية التصوير للحرمان لأنه رقم يمحو كل موجود فصاحبه خالية يده من تراثه.

ومنها:

إذا وُتروا مدّوا إلى واتريهِمُ

أكُفّاً عنِ الأوتـارِ منقبضاتِ

****

وتصور معي هذه المقولة كيف يُقَتلون أهل البيت تحت كل حجر ومدر ولا يستطيعون أن يردوا عن ذلك البلاء ولا ناصر لهم ولا معين إلا الله فهذا من الشعر المأساوي الذي يصور واقعاً مريراً.

هذا حديثي أذعته وسجلته حول رؤياي في شعر هذا الشاعر العملاق.

وأقصرت هذا الحديث على نصوصه الشعرية البيانية وما فيها من جمال بياني ولم أصور ظروفه التي مر بها ومرت به وما لبسته من أحداث عاشها وإن أشرتُ إلى صورة من حياته السياسية باقتضاب.

١٤٣٠/٣/١٩ هـ

١٦/ ٣ /٢٠٠٩ م

ديك الجن الحمصي

عندما قرأت ديوان الشاعر عبد السلام بن رغبان المعروف بديك الجن، فشاعرنا له صور شعرية متنوعة في فنون الشعر فقصائده فيها وثبات عاطفية ونفحات سحرية يصور لك الحدث كأنك تشاهده أمام عينيك فتفناً في هذه الصور، فوجدته شاعراً عملاقاً يحب آل البيت وكتب فيهم صوراً رائعةً

قال يمدح أمير المؤمنين عليه السلام:

يا عينُ في كربلا مقابرُ قد

تَرَكْنَ قلبي مقابرَ الكُربِ

مقابر تحتها منابرُ مِنْ

عِلْمٍ وحِلْمٍ ومنظرٍ عَجَبِ

مِنْ البهاليلِ آل فاطمةٍ

أهلِ المعالي والسَّادةِ النُّجُبِ

كم شرِقَتْ منهمُ السيوفُ وكمْ

رُوِّيَتِ الأرضُ مِنْ دمٍ سرِبِ

نفــسي فــداءٌ لـكــم ومـن لكُــمُ

نفسي وأمـي وأســرتي وأبــي

****

إنَّ هذه الصور التعبيرية التي تصور مآسي أهل البيت وما لقوا هي صرخة تنبعث من قلوب صادقة وفيها احتجاج على ظلمهم برغم ما أعدوه من إرهـاب ضـد أهـل البيـت وكمُّـوا الأفـواه عـن مـدحهم والإشـادة بفـضلهم ومـا جـاء عـن الرسـول فـيهم بـرغم مـا قامـت بـه الدولة الأموية من تعتيم والضرب على كل من يروي فضيلة في آل الرسول فالويل له والموت، ونهجت الدولة العباسية على هـذا الـنهج وسارت عـلى ذلـك الـسير ولـكنـه بـرغم ذلـك ظهـرت تلـك الفـضائل تملىء الخافقين.

وقال في الزهراء عليها السلام:

يا قـبرَ فـاطـمةَ الـذي مـا مثــله

قـبرٌ بطيــبةَ طـابَ فيه مبيتـا

إذْ فيكَ حَلَّتْ بضعةُ الهادي التي

تجلـى محاسن وجهها حُلِّيتا

إنْ تنأَ عنه فما نأيتَ تباعُداً

أوْ لم تَبِنْ بدراً فما أخفيتا

****

وهنا يحدثنا ديك الجن عن بضعة المصطفى فيصف فضل بركاتها ولأنها دفنت في المدينة المنورة فقبرها يزين تلك المدينة ويجلي لها المحاسن وإنْ تبعد عن قبرها أو عن المدينة المنورة فمهما بعدت فهو كالبدر لا يخفى فأنت تراه في أي موضع كنت أو في أي مدينة أنت تبصر البدر يضيء في السماء فهذا تعبير لم يسبقه أحد أو لعلي لم أطَّلِع على فكرة لشاعر تجسد معنى كهذا المعنى.

ونعود لسيرة الشاعر ديك الجن فنتحدث عما رواه التاريخ مع زوجته ورد، كما يحدثنا التاريخ أنها كانت نصرانية فأسلمت فتزوجها وهام بها بل عشقها والعشق يعمي ويصم لا يترك للعاشق أي تفكير إلا في معشوقه فلا يرى شيئا من حوله أو خلفه إلا محبوبه:

فكل شيء رآه ظنه قدحاً

وكل شيء رآه ظنه الساقي

****

هكذا العاشقون فأحيكت من ابن عمه قصة حول زوجه وكان عبد السلام مسافراً ويقل إنها خانته وأحبت غلامه فكان بينهما ما كان فجاء من سفره وصدق ابن عمه في ما قال فجرد سيفه فقتل زوجته وغلامه وجبل منهما قدحاً فصار يشرب فيه ويكتب الشعر

أما الرواية الأخرى الذي رواها الشاعر الكبير عمر أبو ريشة ونظم قصيدته العصماء في هذه القصة التي صورها أبو ريشة أن عبد السلام خشي على زوجته الشابة بعد موته يضمها زوج آخر فهداه تفكيره أو حبه القاتل إلى قتلها وغلامه إلى آخر القصة، وفي رأيي أن القصة التي خلقها ابن عمه حول زوجته ورد والغلام هي الصحيحة أما الأخرى فلا صحة لها إذا كان عبد السلام خشيَ على زوجته أن يضمها غيره بعده فلماذا يقتل الغلام ؟ وعلى تقدير القصتين فقد ربح الشعر قصائد تصويرية عصماوات فاسمعه كيف يصور اندفاعه العاطفي وفي حرفه عاطفة وقلب يخفق مهما بلغ ذلك التصوير.

قال وقد عاد إلى حمص وقتل زوجته بحيلة عملها ابن عمه:

ليتني لم أكُن لعطفكِ نِلتُ

وإلى ذلك الوصالِ وصلتُ

فالذي منِّيَ اشتملت عليه

أَلِعارٍ ما قد عليهِ اشتملتُ

قال ذو الجهلِ قد حَلُمتَ ولا

أَعلمُ أنِّي حَلُمتُ حتى جَهِلتُ

لائمٌ لي بجَهلِهِ ولماذا

أنا وحدي أحببتُ ثُمَّ قَتَلْتُ

سوف آسى طولَ الحياةِ وأبكيـ

ـكِ على ما فعَلْتِ لا ما فَعَلْتُ

****

فديك الجن عندما تسرَّع في تصديق ابن عمه وأخذته الغيرة وقتلها برغم ذلك فإنَّ عاطفة الحب والألم تنساب في ذلك الحرف وراح يتمنى أنه لم يتزوجها ولم يجرِ بينهما هذا الود وهذه الألفة.

وقال لما علم بالمكيدة وأن زوجته قتلت مظلومة بريئة بحيلة ابن عمه وكم من رجالٍ يلبسون ثوب الشيطان فيفرقوا بين الزوج وزوجه وبين الابن وأبيه بل يهدمون أسراً وبيوتاً فتصور رثائه لها وندمه على ما فرط:

يا طلعـــةً طلعَ الـحِـمامُ عليها

وجنى لها ثمرَ الـرَّدى بيـديها

روَّيْتُ من دمِهــا الثَّرى، ولطالـما

روَّى الهوى شَفَتَيَّ من شفتيها

قد باتَ سيفي في مجالِ وشاحِها

ومدامعي تجري على خـدَّيـها

فوحقِّ نعليها وما وطيء الحصى

شـيءٌ أعـزُّ عـليَّ مــن نعليـهـا

ما كــانَ قتليــها لأنـي لـم أكُـنْ

أبكي إذا سقَطَ الغُبارُ عـليهــا

لكن ضننتُ على العيونِ بحُسنها

وأنِفتُ من نَظَرِ الحسودِ إليهـا

****

هذه مرثيـة مأسـوية لكنهـا ليسـت كـالمراثي إنهـا لوحـة مـن الفن وصورة من صور التجسيد لحياة غرامية عاشـهـا الـشاعر يجنـي مــن حــدائقها ورود الحــب ويــستعذب كـؤوســاً مــن لمــى الحبيــب،

ويسقى من ينبوع الهوى ما لذَّ له وطاب، إلا أنَّ الخدعة أو المكيدة التي كادها ابن عمه له لم تجعله يتريث ويبحث عن الحقيقة ويلمس الواقع بيديه فتعجل فكانت عاقبة العجلة الندم.. الندم الذي لا يستطيع على تغييره أو تخفيف ويلاته، لأنه ذبح حبه بيده مختاراً غير مجبور، فأخذ الشاعر يسكب دموعه في أوتار حنونة باكية تفجر الصخر فاقرأ نصه السابق حيث بدأه بلهفة وحسرة تقطع القلوب عندما طلعت تلك الطلعة.. طلعة المنون وكيف الردى أي الموت جنى ثماره من ورد حبيبه وكيف أجرى سيفه في مجال وشاحها ودمعه ينسكب على خدّيّ الحبيبة، ويتذكر ولكنها ذكرى ممزوجة بالحلو والمرارة، فطالما شرب الهوى من شفتيها ولكنه اليوم أبدل تلك الكؤوس بريّه الثرى من دمها، فيعيش في تلك المأساة ويصور آلامه وأسفه في هذا النص فحذاؤها والحصى التي تطئ بها أصبح عنده قسماً يقسم به فكيف بجسمها البض الناعم ويخشى عليها من تساقط الغبار على جسمها ويظن بجمالها على العيون فكيف سمحت نفسه بقتلها، إنها النزوة الطائشة التي دفعت الشاعر لهذه الوقفة المظلمة المفترسة التي بطنت سماء حياته وضببتها بليل داكن لا فجر فيه.

وقال في ورد:

ما لامرئٍ بيدِ الدَّهْـرِ الخؤونِ يدُ

ولا عـلـى جَلَدِ الدُّنيا له جَلَدُ

طوبى لأحباب أقـوام أصابَهُمُ

من قبل أن يعشقوا موتٌ فقد سَعِدوا

وحَـقِّهم إنَّـه حقٌّ أَضنُّ بـه

لأنْفِدَنَّ لهمْ دمعي كما نفِدوا

يـا دهرُ إنـكَ مَسقيٌّ بكـأسِهمُ

ووارِدٌ ذلك الحوضَ الذي وَرَدوا

الخـلقُ ماضونَ، والأيَّـامُ تتبَعُهُمْ

نفنى ويبقى الإلهُ الواحدُ الصَّمَدُ

***

فالشاعر بعد فعلته والتضحية بقتل حبه لم يهدأ ولم يسكن روعه ولا تزال أناته تنسكب نغمات حزينة ويصورها في حرف مأساوي كله ألم وحسرة وأسف على فعلته التي ارتكبها فيتمنى أنه لم يحب ولم يعشق ويا ليته مات قبل أن يعشق ـ ورد ـ.

وقال وقد رأى مناماً (حلم):

جاءْت تزورُ فراشي بعدما قُبِرَتْ

فظلتُ ألثُمُ نحراً زانه الجِيدُ

وقلتُ: قُرَّةَ عيني قد بُعِثتِ لنا

فكيفَ ذا وطريقُ القبرِ مسدودُ؟

قالت: هناك عظامي فيه مُودَعَةٌ

تَعيثُ فيها بناتُ الأرضِ والدُّودُ

وهذه الرُّوحُ قد جاءتكَ زائِرةً

هذي زيارةُ مَنْ في القبرِ مَلْحودُ

****

واقرأ معي هذا النص الذي صور فيه ديك الجن زيارة ورد له في المنام فأهاجت آلامه الدفينة، فصورها في أبدع تصوير في لحن حزين مأساوي باك، وكيف تزوره وهي ملحودة في قبرها، وليس للقبر باب تخرج منه، فيصورها تجيبه أنَّ عظامها لا تزال تعيث فيها الديدان، أما هي فكانت أوفى منه برغم جريمته التي ارتكبها معها، فروحها تزوره وتسليه وهكذا زيارة الموتى وفيها عظة لمن يتعظ.

وقال:

وَدَّعتُها لفراقٍ فاشتَكَتْ كبِدي
إذ شَبَّكَتْ يدها من لوعةٍ بيدي

وحاذرَتْ أعينَ الواشينَ فانصرَفَتْ
تَعَضُّ من غيظها العُنَّابَ بالبَرَدِ

فكانَ أوَّلُ عَـهْدِ العين يومَ نأَتْ
بالدَّمع آخِرَ عَهدِ القلبِ بالجَلَدِ

جَسَّ الطَّبيبُ يدي جهلاً فقُلتُ له:
إنَّ المحبَّةَ في قلبي فَخَلِّ يدي

****

وهذا النص اقرأه بدقة وتأمل فسترى نفسك في حياة مظلمة صارخة تعلن بالمأساة وبالألم والحسرة ولكن حيث لا يفيد الأسف ولا يجدي الألم ولا يروي البكاء، ولا تعيد الحسرة الحبيب لأنه مضى وانتهى فلا عودة، ولكنَّ الألم لا ينفك من الشاعر حتى يوسد في قبره لأنَّ موت الحبيب ما كان موتاً طبيعياً إنما كانت جريمة صدرت من حبيب لحبيبته فنحر حبه بيده فعاش في هستيرية لا حدود لها ولا نهاية لها، ولا أعرف كم عاش ديك الجن

بعد قتله لزوجته ـ ورد ـ ونحن إذ نتحدث عن ديك الجن وعن مآساته لا نريد أن نتحدث عن حياته والبيئة التي عاشها وملابسات أيامه ولياليه، قبل قتله حبيبته وبعد قتلها، إنما تعاملنا مع نصوصه الشعرية وما فيها من جمال هذا ما أردته من رؤيايَ حول هذه النصوص.

٢٠/٣/١٤٣٠ هـ

١٧/٣/ ٢٠٠٩ م

امرؤ القيس

إنّ امرئ القيس شاعر مَّثل عصره فهو كمرآة ذلك العصر بما فيه من صور وعادات ألفتها قومُه في العصر الجاهلي، وساروا عليها بما فيها من خير وشر، فهو يمثل أداة المواصلات في ذلك العصر بأجمعها كالخيل والناقة ويصف الصحراء والرمال الذهبية وأشعة الشمس عندما تلقي أضواءها على فم الصحراء فتشاهد رمالها ملتهبة كأنها أتون جاحم، ويصف القمر ويصف العذارى العربيات فشعره حافل بصور ذلك العصر ينطبق عليها كل الانطباق، فعندما تقرأ قصائده تشاهد في حروفها العصر الذي عاشه يتمثَّل في تلك القصائد، وامرؤ القيس شاعر جدّد الشعر العربي وفتَّح فيه ألواناً من فنون الشعر، ما كان الشعراء السابقون يسيرون ولا يعرفون تلك الدروب التي جددها امرئ القيس وأنشأها في قصائده وابتكرها ولعله أول من أشار لعناصر الشعر القصصي فعندما تقرأ معلقته أو بعض قصائده تلمس لمسات وإشارات لعناصر القصة فهو يقص كيف جاء لحبيبته وكيف طرقها حينما كانت حبلى وحينما كانت مرضعاً وشغلها عن

مرضع فهي تتحول إلى مرضعها ولا تزال معه في تلك النشوة:

فمثلك حبلى قد طرقت ومرضعٍ

فألهيتها عن ذي تمائم محولِ

ويصف في قصيدة أخرى كيف انسل إلى محبوبته فاعتلى إليها كما يسمو الحباب ويطفو على فم الكأس:

سَمَوتُ إلَيها بَعدَما نَامَ أهلُهَا

سموَّ حَبَابِ المَاءِ حَالاً على حَالِ

وله هذه اللمسات في قصائد أخرى فأعتبره أول من أشار لعناصر الشعر القصصي غير أنه لم يكتمل ذلك الفن الذي نعيشه في هذا العصر القرن العشرين والواحد والعشرين وإن كان الفضل لمن سبق كامرئ القيس وعمر بن أبي ربيعة ولا ننسى شعراء اليوم الذين تفننوا في الشعر القصصي وأحكموا عناصره الفنية، ولا يعوزنا الدليل فاسمعه في هذه القصيدة كيف يحاور محبوبته، فيكون بينهما حواراً قد يطول وقد يقصر فأترك لك هذه القصيدة لتقرأها وتحكم عليها بنفسك.

جزِعتُ ولم أجزَع منَ البينِ مجزَعا

وعزَّيتُ قلباً بالكواعبِ مولَعا

وأصبحتُ ودّعتُ الصِّبا غيرَ أنني

أُراقبُ خلاَّتٍ، من العيشِ، أربَعا

فمنهنَّ: قولي للنَّدامى ترفَّقوا

يُداجونَ نشّاجاً منَ الخمرِ مُترَعا

ومنهنَّ: ركضُ الخيلِ ترجُمُ بالقنا

يُبادرْنَ سرباً آمناً أنْ يُفزَّعا

ومنهنَّ: نصُّ العيسِ والليلُ شاملٌ

تيَمَّمُ مجهولاً منَ الأرضِ بلقَعا

خوارجُ منْ برِّيَّةٍ نحو قريَةٍ

يُجَدِّدن وصلاً، أو يُقرِّبنَ مطمعا

ومنهنَّ: سَوْقي الخَودِ قد بلّها النَّدى

تُراقِبُ منظومَ التَّمائمِ، مُرضَعا

تَعِزُّ عليها ريبتي، ويسوءُها

بُكاهُ، فتثني الجيدَ أن يتضوَّعا

بعثتُ إليها، والنجومُ طوالعٌ

حِذاراً عليها أن تقومَ، فتُسمَعا

فجاءت قطوفَ المشي هيّابةَ السُّرى

يُدافعُ رُكناها كواعِبَ أربعا

يُزَجِّينَها مشيَ النَّزِيفِ وقد جرى

صُبابُ الكرى في مُخِّها فتقَطَّعا

تقولُ وقد جرَّدتُها من ثيابِها

كما رُعتَ مكحولَ المدامعِ أتلعا:

وجَدِّكَ لو شيءٌ أتانا رَسُولهُ،

سِواكَ، ولكن لم نجِد لك مدفعا

فَبِتنا تَصُدُّ الوحشُ عنّا كأنّنا

قتيلانِ لم يعلمْ لنا الناسُ مصرَعا

تجافى عنِ المأثورِ بيني وبينها،

وتُدني عليَّ السابِريَّ المُضَلَّعا

وامرؤ القيس قد وثب وثبة عبقرية في وصفه لجواده، فكانت قصيدته لوحة من لوحات الفن وصورة من الصور المتحركة السينمائية التي تشاهدها كأنك وامرؤ القيس على ظهر جواده يتحرك مدبراً ومقبلاً وسابحاً به في تلك الصحراء، فقد وفِّقَ في وصف تلك الصورة وصفاً حسيًّا واجتمعت عناصر الفن في تلك الصور فجاءت الشعراء من بعده تجترُ من هذه الصور وتعيدها كما تجترُّ عنز القائلة حتى سفّ من سفَّ، وبقيت هذه الصورة إلى يومنا هذا ولو لم تتحول طرق المواصلات إلى الطرق العصرية الجديدة فيما أحسب لظلت الشعراء تجتر من تلك الصور فالشعراء بقوا ردحاً من الزمن إلى ما بعد العصر العباسي وإلى عصر الانتكاسة الفكرية قبل نهضة القرن العشرين يجترون من شعر امرئ القيس على طريقة تقليدية عمياء فهو يعيش في قصره وهو يصف الصحراء والرمال والعادات الجاهلية ولعله لم ير الصحراء ولم يركب الناقة، حتى جاءت نهضة القرن العشرين ففتحت آفاق التجديد وسارت الشعراء والأدباء في منهج فكري جديد، فامرؤ القيس يعبر عنه القدامى بهذا القول بُدِأ الشعر بملك وخُتِمَ بملك - أبو فراس الحمداني - وهذه المقولة لا تعني شيئاً إنما هي جاءت للتفخيم إلا إذا كان القصد من هذه المقولة يعنون بالملك.. الملك

المادي، وليس ملك الأفكار والصور والمعاني وكذلك الخاتمة لهذا المعنى فهذه مقولة واقعية لأنَّ المادة لا تفسر ولا تقاس بملك الفكر والعقل.. فالفكر سيبقى ويخلَّد، أما المُلك فيزول كما يزول حاكمه، وامرؤ القيس لا يزال حيّاً يشاركنا العيش فالدراسات التي صدرت عنه منذ العصر الجاهلي حتى يومنا هذا لا تعد ولا تحصى، فهو حريٌّ بهذه الدراسات، لأنه شاعر ترك ثروة ضخمة، وأثرى اللغة العربية وحافظ على بقاءها بشعره وشعر أمثاله كي لا تنقرض فتبلى.

هذا ما أردت أن أتحدث عن امرئ القيس من قراءاتي ومطالعاتي الجديدة لشعره وقد تحدثت عن نصوص شعره البيانية وتأثيرها في اللغة العربية وقصرت رؤياي على هذه الناحية فآمل أني وفقت في دراسة بعض نصوص الشاعر.

١٤٣٠/٣/٢١ هـ

٢٠٠٩/ ٣/١٨ م

أبو العتاهية

إنّ هذه الصفحات هي من مرئيات قراءاتي للشاعر إسماعيل ابن القاسم بن سويد بن كيسان مولى عنزة الشهير بأبي العتاهية المولود عام ١٣٠ هجري الموافق ٧٤٨ ميلادي المتوفى عام ٢١٠ هجري الموافق ٨٢٦ ميلادي، كان علماً يُشار له بالبنان عاصر شريحة من الشعراء الذين هم في قمة الشعر وكان عصرهم مزدهراً بالفكر والأدب ـ العصر العباسي ـ الذي نشط فيه الفكر وحلق برغم ما في ذلك العصر من الاستهتار والمجون.

كان للفكر دور ضخم حتى أصبحت بغداد عاصمة من عواصم الفكر أو بالأحرى في ذلك العصر لا تضاهيها عاصمة، وقد أشرنا إلى ذلك العصر وأعطينا عنه دراسة في كتابي دراسات في شعر أبي نواس فاللقارئ الرجوع إلى هذا الكتاب ليعرف سلبيات هذا العصر وإيجابياته.

أما بحثي هنا فأريد أن أتحدث حديثاً عن أبي العتاهية ومحللاً نصوصه الشعرية، أما ملابساته التاريخية وحياته

الشخصية وما اقترن به من أحداث أو اقترنت به فليس هذا من دراستي المقصورة على هذا البحث المختص بتحليل نصوصه الشعرية وما فيها من جمال بياني.

ولا بد من إشارة إلى أن هذا الشاعر الذي ضرب مثالاً في فنه وتفرد به دون غيره فهو شاعر واعظ، اتخذ أسلوباً له في الوعظ وضرب في خطابته الشعرية وعظه البياني أمثلة حيَّة ليتعظ بها من يتعظ وفيها عِبرة لمن اعتبر وله بعض الوثبات البيانية ففي غير الوعظ في أرجوزته التي هي آخر ديوانه ففيها وثبة من وثبات الوصف:

إنَّ الشباب والفراغ والجَده

مفسدة للعقل أي مفسده

فهذا وصف دقيق في بيانٍ أبدع فيه الشاعر أليس الشباب إذا امتزج بالفراغ والغنى يكون للمرء مفسدة بل أكبر مفسدة الفراغ مع الغنى يحطم العقل فهما يحطمان المرء ويتركانه في جوٍّ مرّهل كأنه من الأجسام التي عشعش في أعضائها المرض فلا تجد فيه الحيوية.. حيوية الشباب ولا نشاطه وله وثبة من وثبات العبقرية:

إنَّ الشباب حجة التصابي

روائِحُ الجَنَّـةِ في الشّبابِ

سبحان الملهم الذي ألهم الشاعر هذا المعنى الوثاب الدقيق فالشباب هو حجة التصابي الذي هو كالمغناطيس للفتيات فهنَّ يحُمْنَ كما تحوم الحمامة حول غدير الماء ويكمل البيت بوثبة فيها زخم وإبداع روائح الجنة في الشباب، تأمل معي أيها القارئ كيف صور طيوب الجنة تضوع من الشباب المتوهج المتوثب فهذه معانٍ تسمو إلى أبعد حدود المعاني الفكرية، وبالأحرى أنها من المعاني الروحية التي لا يتصورها ولا يصل لأفقها إلا من شرب من تلك الأجواء الشاعرية الشفافة.

وقال في قصيدة ذهب المداوي والمداوى:

إنّ الطبيب بطِبّهِ ودَوائِهِ

لا يستطيعُ دفاعَ مكروهٍ أتى

ما للطبيبِ يموتُ بالدّاءِ الذي

قدكان يُبرىءُ منه،فيما قد مضى

ذهبَ المداوي والمُداوى والذي

جلبَ الدواء، وباعه، ومنِ اشترى

***

هذه صورة لأبي العتاهية فيها عَبرة وعِبرة فإنَّ الطبيب العاجز بما يحمل من مهارة طبية وبما لديه من أدوية يعجز عن شفاء مريض وتكتمل الصورة إن الطبيب يموت بالداء الذي كان يبرئ منه فيصير أمام الموت كما يصير راعي الضأن، ويبلغ في هذه الأبيات في تعبيره الزخم فيقول إن الموت ذهب بالمداوي والمداوى والذي يجلب الدواء من محلات بعيدة والبائع والمشتري.

هذه صورة متحركة نلمس واقعها في كل لحظة من حياتنا فهذه المشاهد تتحرك أمام أعيننا صورة مرعبة تذكرنا باليوم الأخير من حياة كل امرئ كما يذكرنا الغروب بغروبنا إلى الحياة الباقية، ولا فرق عند الموت بين جالينوس وبين راعي الماعز فهما في الموت متساويان موتة جالينوس وموتة الراعي.. وموتة الراعي كموتة جالينوس.

وقال في قصيدة ذنوب على آثار ذنوب:

إذا ما خلوْتَ،الدّهرَ يوما،فلا تقلْ

خلوتَ، ولكن قُلْ عليَّ رقيبُ

ولا تحسَبَنَّ الله يُغفِلُ ما مضى،

ولا أنّ ما يخفى عليه يغيبُ

لهونا، لعمرُ اللَّهِ حتى تتابعَتْ

ذنوبٌ على آثارِهنَّ ذُنوبُ

فيا ليتَ أنّ الله يغفرُ ما مضى،

ويأذَنُ في توباتِنا، فنتوبُ

إذا ما مضى القرن الذي كنتَ فيهمُ

وخُلِّفْتَ في قرنٍ فأنتَ غريبُ

وإنّ امرأً قد سارَ خمسين حِجّةً

إلى منهلٍ، مِنْ وِرْدِهِ لقريبُ

نَسيبُكَ مَنْ ناجاكَ بالوُدّ قلبُهُ،

وليس لمنْ تحتَ التّرابِ نسيبُ

فأحسِنْ جزاءً ما اجتهدتَ فإنّما

بقرْضِكَ تُجزى والقُرُوضُ ضُرُوبُ

ديوان شاعرنا حافل بهذه الصور الوعظية ويكاد أن يكون جل شعره في الوعظ وقسم منه ضئيل في مدح ملوك الدولة العباسية، وأقل منه تشبيب بحبيبته عتبة وكنت أحفظ أبياتاً له في حبيبته عتبة ولكنني لم أقف عليها في ديوانه وقد نسب بعض

الأدباء له وعلق عليها بمقولتهم المشهورة، لو كنت أنظم شعراً مثل شعر أبي العتاهية في عتبة لنظمت دواوين شعر والأبيات هي:

يا عتب ما لي ولك

يا ليتني كنتُ لكِ

والله أعلم بصحة هذه المقولة التي حكاها التاريخ عن أديب ونسبَ الشعر إلى أبي العتاهية وشاهدُنا على ما نذهب إليه من رؤية القطعة (ذنوب على آثار ذنوب) فمن عنوانها تمثل لك الوعظ فكيف بمحتواها فإنّ في محتواها صورة وعظية فعلى القارئ أن يقرأها ولا بد لها من إِيماءة ولو إيماءة الشاطئ أو إلمامة من إلمامات الجزع التي تغنى بها بعض شعراء الجاهلية فهذه القطعة بما فيها من عظة تشير إلى حياة كل شخص يتخلف عن أصدقائه وعن عصرهم في الفكر والرأي وأدركهم الفناء وعمِّر هو إلى قرن غير القرن الذي عاش فيه فيرى نفسه غريباً وإن كان يعيش بين قومه وأبناءه وأحفاده إلا أنه يشعر بغربة الروح.. بغربة الأصدقاء الذين امتزجت أرواحهم بروحه وتناغمت حياتهم بحياته وهكذا الشعر يصور لنا دنيانا ويرسمها في صور تعبيرية ويجسدها في شريط سينمائي متحرك نشاهده متى ما قرأنا تلك القصيدة وهذا هو الشعر الباقي الخالد.

وقال في قصيدة يا خجلي من ربي[١]:

بكتْ عيني على ذَنبي،

وما لقيتُ مِنْ كربي

فيا ذُلّي، ويا خجلي،

إذا ما قال لي ربي

أمَا استحيَيتَ تَعصيني،

ولا تخشى مِنَ العتبِ

وتُخفي الذّنبَ من خَلقي،

وتأبى في الهوى قُربي

فتُبْ مما جَنَيْتَ عسى

تعودُ إلى رِضى الرَّبِّ

وهذا النص الشعري الوعظي الذي فيه نجوى وخضوع وتذلل للخالق فاطر السماوات والأرض فيه صورة من صور المناجاة التي هي أقل القليل في حق الخالق وفاطر السماوات والأرض فكل خضوع أو نجوى لفاطر السماوات والأرض لا تؤدي بعض نعمه التي أنعمها على عبيده وكل ما شكرناه لم نؤدي حقه فنسأله أن

يوفقنا إلى طاعته وشكره والإستقامة حتى نلقاه بلطف منه وفيض ورحمة .

وقال في قصيدة عاش المريض ومات الطبيب:

نعى لك شرْخ الشّبابِ المشيبُ،

ونادتْكَ، باسمِ سواكَ، الخطوبُ

وقبلكَ داوى الطّبيبُ المريضَ،

فعاشَ المريضُ وماتَ الطّبيبُ

وهنا نصٌّ شعري يصف فيه الشاعر كيف إذا ودَّع المرء شبابه وهجم عليه المشيب ونادته الخطوب بلايا الزمان التي تضبب حياة الإنسان وتملؤها بالويلات ليصبر ويرضى بالقضاء والقدر فيحصل على الأجر أو يسخط فيجازى عن سخطه بالإثم ولا تكون عاقبته خير، وقد يموت الطبيب الذي يعالج السقيم ويعيش السقيم وما أكثر هذا المنظر الذي نشاهده في حياتنا.

ومن قصيدة له يصور فيه طللاً قد هوى فلا يعرفُ عاليه من سافله

لمَنْ طَلَلٌ أُسائِلُهُ،

مُعَطَّلَةٌ منازِلُهُ؟

غـدَاةَ رأيْــتُــهُ تَــنْـعى

أعــالـيَـهُ أسـافِــلُــهُ

وكـــنـتُ أراهُ مـأهــولاً،

ولـــكـنْ بــادَ آهِـلُـــهُ

وكـلٌّ لاعتِساف الـــدّهـ

ـرِ مُـــعـــرَضَـةٌ مقــاتِلُهُ

ومــا مُـمْـــتَــلِـــكٌ، إلا

وريـبُ الـدَّهـرِ شامِلُهُ

فـيَصــرَعُ مَنْ يُصــارِعُهُ،

ويَـنْـضُلُ مَـنْ يُنــاضِلُـهُ

****

أيها القارئ توقف معي لحظة لنشاهد صورة عند الشاعر من صور شعره في وصف الطلل، ولكن يتراءى لي أن لم يقتفِ الشاعر على مسرى الشعراء الماضين في وصف الطلول والتباكي عليها، إنما صاغ حرفه في موعظة يخاطب فيها الطلول، ويسأل أهل تلك القصور، وكيف تنعى أعاليه أسافله، فأصبحوا عظة

للأحياء، إن كان هناك متعظ ويستمر في صورته الوعظية، ويخفف موعظته لأن لا تكون ثقيلة على البشر فهي ستشمل كل من يمشي على هذا الكوكب المسمى بالأرض، وأنّ كل البشرية معرضة إلى مقاتل الدهر وإلى ويلاته لا تختصر على قصر دون قصر أو على شخص دون شخص فكل واحد من هذه البشرية هو معرَّض للبلايا والموت الذي لا بد منه، ويشير في هذه الصورة إلى أنّ أي شخص يصارع الدهر سيصرعه بكلكله ويطحنه كما تطحن الرحى الحبوب.

ومثل هذه القصيدة قرأتُ للشاعر عمر أبي ريشة قصيدة وصف فيها طللاً رومانياً فيها عجز من أبياتها يشبه عجز تماماً ما كتبه أبو العتاهية صورة ولفظاً ومعنى ولعل أبا ريشة اقتبس منها هذا المقطع أو بعض الصور أو كان توارد خواطر منهما والذي يرجح في ميزان النقد أن أبا ريشة متأخر بقرون وقرون عن أبي العتاهية فأقرب للتاريخ الواقعي أنه قلده وأخذ منه والله أعلم.

فأبو ريشة يصف طللاً رومانياً وقف عليه نذكر ثلاثة أبيات من قصيدته (طلل) لتطابق الصور بينه وبين أبي العتاهية:

قفي قدمي! إن هذا المكان،

يغيب به المرء عن حسه

رمــالٌ، وانقــاض صرحٍ هــوت

أعاليه تبحــث عــن أســه

أقــلّبُ طـــرفــي بـــه ذاهــلاً

وأسأل يــومي عــن أمسه

****

فالصورة في قصيدة أبي ريشة تشبه الصورة في قصيدة أبي العتاهية في أن الطلل أعاليه تبحث عن أسه وإن كان أبو ريشة أبدع وفاق أبا العتاهية في تصويره وإبداعه وزخمه.

وهذا ما أردت أن أحدثكم عنه من نصوص الشاعر التي هي صور من الوعظ تفنن فيها شاعرها فبلغ فيها صورة من الفن والبيان الجميل.

١٤٣٠/٣/٢٥ هـ

٢٠٠٩/ ٣/٢٢ م

ابن الرومي

نشر في مجلة الواحة بين حلقتين الأولى في العدد رقم٦٢ والثانية في العدد٦٣ من السنة السابعة عـشر خريف ٢٠١١م

ابن الرومي: هو أبو الحسن علي بن العباس بن جريج، أو جوريس الرومي ولد سنة ٢٢١ هـ توفي ٢٨٣ هـ في بغداد. إنني أكتب عن شاعرٍ من شعرائنا العمالقة من الذين شاركوا وأسهموا في الشعر والأدب في العصر الذهبي... العصر العباسي، ذلك العصر الذي جمع صوراً من التناقض، ففيه تألقت الثقافة، والفكر العلمي وأسست الجامعات، كجامعة المستنصر وفيه ظهر الفساد والخمر والظلم فهو عصر حافل بالمجون وبالفكر العلمي وبالفقر وبالغنى فشريحة من وعّاظ السلاطين وأرباب البلاط يقذفون الطعام في النهر، وينامون إلى جنب زقاق الخمر وآخرين ينامون على الثرى، ويطوون بطونهم على سغب، ويموتون بالجوع حيث لا يتحصلون على رغيف يأكلونه، فهذا العصر فيه متفارقات تختلف بألوانها وصورها كل الاختلاف، وتجمع التنقاضات، وليس حديثنا عن العصر العباسي، فقد أعطينا عنه لمحة مقتضبة في كتابنا دراسات في شعر أبي نواس الذي طبع ونشر ببيروت ١٤٣٠ هـ، والهدف من هذه المقدمة هو الكتابة عن ابن الرومي الذي عاش

في ذلك العصر، وأسهم في ثقافته وفكره فابن الرومي هو مصور ورسام يرسم ما تقع عليه عدسته الشعرية فقد صور الخباز كيف يديح الرغيف في يده وصور الزلابية، وسوف نحلل ذلك، ولكنه أنفرد بهجائه اللاذع الذي أفحش فيه وددنا لو أنه تجنب هذا الفحش وهذا الأسلوب الذي لا يليق للشاعر المفكر أن يكتبه فضلاً عن أن ينطق به، فهو منطق فحش إلى أبعد الحدود فيؤخذ عليه كل المأخذ ففي رأيي أنه ينقص الشاعر من ناحية الآداب والخلق:

فإنما الأمم الأخلاق ما بقيت

فإن همُ ذهبت أخلاقهم ذهبوا

وبرغم هذا وذاك فإنه شاعر مبدع رسام يرسم المناظر كأنك تشاهدها ففيه إبداع وزخم، وسوف نتحدث عن هذه الصور كما أبدع في قصيدته التي وصف بها المغنية وحيد فكانت هذه القصيدة من الإبداع الشعري ففيها صور متحركة ترسم وحيد كأنها أمامك تقوم بألحانها وأغنياتها التي أطربت ابن الرومي وحركت حسّه المرهف الشاعري فانسكب نهراً متدفقاً قطعاً بلورية لا يعرف أولها من آخرها فكأنك تشاهد شريطاً سينمائياً متحركاً في تلك القصيدة، وسنقف عندها، فهذه الصورة الوصفية

لهذه المغنية تعيد لنا مغنية الشرق أم كلثوم حيث لا تجحظ عينها ولا يتبدل وجهها وكانت قديرة على مد الصوت من تلك الحنجرة التي صاغها خالقها ولا تتبدل في غنائها، ولا تميع ميع المغنيات التي كأنهنّ في صلة جنسية فصوره وحيد كما سمها ابن الرومي تنطبق تماماً على أم كلثوم في الغناء والحاضر يفسر الماضي والماضي يعود في الحاضر فالتاريخ يعيد نفسه ونحب أن نختار منها قطعة من هذه القصيدة الطويلة التي تبلغ عدد أبياتها ثمانية وخمسين بيتاً:

قصيدة وحيد:

يا خليليَّ تيَّمَتْني وحيدُ

ففُؤادي بها مُعَنَّىً عميدُ

غادةٌ زانها من الغُصن قَدٌّ

ومن الظَّبي مُقلتان وجيدُ

وزهاها من فرعِها ومن الخدَّينِ

ذاك السَّوادُ والتوريدُ

أوقد الحسْنُ نارَه من وحيدٍ

فوق خدٍّ ما شانَهُ تخديدُ

فهــيَ بــردٌ بـخـدِّهــا وســلامٌ

وهـي للعاشـقين جُهدٌ جهيدُ

لم تَضِرْ قطُّ وجهها وهو ماءٌ

وتُذيبُ القلوبَ وهـي حديدُ

مـا لماءٍ تصطليه مـن وجنتيها

غير ترشافِ ريقِها تبـريدُ

مثلُ ذاك الرضابِ أطفأ ذاك الـ

ـوَجد لولا الإباءُ والتَّصرِيدُ

وغريرٍ بحسنها قـال: صِفهـا

قـلتُ: أمران : هـيِّنٌ وشديدُ

يسهل القول إنهـا أحسن الأشـ

ـياءِ طُرّاً، ويعسرُ التحديدُ

شمسُ دجنٍ،كلا المنيرين من

شمسٍ وبدرٍ من نُورها يستفيدُ

تتـجلَّـى للنـاظـريـن إليـهـا

فشَقيٌّ بحسنها وسعيدُ

أيها القارئ نحن أمام لوحة فنية من لوحات الفن التي لا توجد إلا على ندرة، فلا تبصر فيها إلا روعة من روائع الإبداع الذي تعجز ريشة الفن عن رسمه ولكنّ ابن الرومي رسم هذه اللوحة وأفرغ في خطوطها تلك العبقرية التي صورت وحيد، وإنني لأقف عند هذين البيتين اللذين يطلق عليهما السهل الممتنع فيهم إعجاز وفيهم زخم.

وغرير بحسنها طلب من ابن الورمي وصف وحيد لأنّ عقله لم يصل لسرٍّ هذا الجمال لذلك قال صفها ولم يعلم أنّ العقل يقف بين أمرين: هين وشديد فإنه يسهل على الشاعر وصفها ولكنه يعسر عليه تحديد حسنها وجمالها فهي صورة رائعة، فما أبسط القول عندما يقول الشاعر هي أحسن الأشياء ولكنه عليه عسير عندما يؤطر الصورة في إطار من الجمال ويحدده.

ومنها:

تتغنَّى كأنها لا تُغَنِّي
من سكونِ الأوصالِ وهي تُجيدُ

لا تراها هناك تَجحَظُ عينٌ
لك منها ولا يَدِرُّ وريدُ

من هُدُوٍّ وليس فيه انقِطاعٌ

وشُجُوٍّ وما به تبليدُ

مدَّ في شأو صوتها نَفَسٌ كافٍ

كأنفاس عاشقيها مديدُ

فيستمر ابن الرومي في لوحته الفنية ويقف وقفة المسمَّر عندما يصفها وهي تغني فهي لا تتبدل أوصافها وهي مسترسلة في غناءها فلا تجحظ العين منها ولا تبدي بوجه متجعد أو غير مستقيم كما تمد صوتها في شأو طويل. فلله در هذه الحنجرة التي صاغها خالقها جل وعلا الذي منحها هذه العبقرية التي استعملتها وحيد في غير ما خلقت له وليتها استعملتها في كتاب الله أو في مناجته، ولكن الذي كان هو الذي كان في إمكانيات وحيد.

ومنها:

وَتَرُ العزفِ في يديها مُضاهٍ

وَتَرَ الزَّحفِ فيه سهمٌ شديدُ

ويمضي ابن الرومي في سيمفونيته فيصف وحيد في غناءها كمجاهد في الميدان في زحفه لفتح مدينة أو إجهاز على خصم وهذه التفاتة من التفتات ابن الرومي العبقرية.

ومنها:

عيبُها أنَّها إذا غَنَّتِ الأحـ

ـرار ظلُّوا وهُمْ لديها عبيدُ

ولا يزال الشاعر يصف ألحان "وحيد" فعندما تغني يرى لها عيباً وهذا العيب أنها تملك الأحرار حتى يصيروا لها عبيداً.

ومنها:

وحسانٍ عرَضنَ لي قلتُ: مهلاً

عن وحيدٍ، فحقُّها التَّوحيدُ

حُسنُها في العيون حسنٌ وحيدٌ

فلها في القلوب حبٌّ وحيدُ

ونَصيحٍ يلومُني في هواها

ضلَّ عنه التوفيقُ والتسديدُ

وهنا ابن الرومي يتخلص من وصف الصورة الغنائية إلى ولعه وهيامه الغرامي بوحيد، فيكشف الستار عن حبه لها عندما يتعرضن له حسان، فينكر عليهن تعرضهن له ويجأر بحبه فإنّ حبه لوحيد وحيد لا يُشْرِكُ معه أحداً، وكل من يلومه في حبها فهو مخطئ وضلَّ عنه التوفيق والسداد.

ومنها:

عن يميني وعن شمالي وقّدا

مي وخلفي، فأين عنه أحيدُ؟

ثم ينتفض ابن الرومي انتفاضة العاشق الهيمان فيصف غرامه بها فحبها ملأ عليه جميع النواحي فهو عن يمينه وشماله وأمامه وخلفه فلا يستطيع الفرار منه أو أن يفلت من قبضته.

ومنها:

أهيَ شيء لا تسأَم العين منه

أم لها كلَّ ساعة تجديدُ؟

بل هي العيش لا يزال متى استُعْـ

ـرض يملي غرائباً ويُفِيدُ

ويزيد ابن الرومي على وصفه الصورة الغرامية فيمثل وحيد شيئاً لا تملُّ العين من النظر له، ويمثل سراً من الأسرار الغراميةحيث تتجدد في كل ساعة والذي يتجدد لا تسأم العين من النظر له، فهي مثل العيش أو بالأصح هي مثل الحياة عندما تستعرضها تتجدد لك فيها صور من الغرائب والعجائب.

فابن الرومي من الشعراء الخالدين الذين صارعوا الحياة فكانوا قطعة منها فهو يتحرك ويتنفس مع الأحياء ويشاركهم حركاتهم وسكناتهم وكان الأستاذ العقاد أحد المعجبين بابن الرومي وفي ذاكرتي إن لم تخني قد كتب عنه أبحاثاً فهو من المقدرين له والمعجبين بشعره.

وفي وصف الصديق الملول:

ما للملولِ وفاءً في مودتهِ

قلبُ الملولِ إلى هجرٍ وإقصاءِ

كأنني كلما أصبحتُ أَعتبُهُ

أخُطُّ حرفاً على صفحٍ من الماءِ

ابن الرومي تفنن في شعره فاسمعه وهو يعاتب أو يصف الصديق الملول الذي لا يثبت على مودة وهو يتقلب في كل لحظة ويميل قلبه من شخص لآخر: فالملول لا وفاء له في مودته أي لا يبقى على مودته فقلبه لا يثبت على مودة صديق من الأصدقاء فبين الفينة والفينة يهجر ذلك الصديق ويبتعد عنه ولو عاتبته فكأنما أنت تخط حروفاً على صفحاتٍ من الماء فلا يجدي معه العتاب كما لا تستقيم الكتابة في الماء.

وقال في وصف الموز:

للموز إحسانٌ بلا ذُنوبِ

ليس بمعدودٍ ولا محسوبِ

يكادُ من موقعهِ المحبوبِ

يدفعُهُ البلعُ إلى القلوبِ

ونشاهد شاعرنا في صورة متحركة كيف رسم لنا الموز وأعطانا عنه منظراً فإنَّ للموز إحساناً بدون أن يتحمل ذنوب فحسناته لا تعد ولا تحصى فهو للذته ولنعومة جسمه يكاد المرء أن لا يمضغه لليونته والاشتياق لأكله بل يكاد أن يزرده زرداً.

وقال في مجانبة صحبة الناس:

عدوكَ من صديقك مستفادٌ

فلا تستكثرنَّ من الصِّحابِ

فإنَّ الداءَ أكثرُ ما تراهُ

يحولُ من الطعام أو الشرابِ

إذا انقلبَ الصديقُ غداً عدواً

مُبيناً، والأمورُ إلى انقلابِ

ولوكان الكثيرُ يطيبُ كانتْ

مُصاحبةُ الكثيرِ من الصوابِ

ولكن قلَّ ما استكثرتَ إلاَّ

سقطتَ على ذئابٍ في ثيابِ

فدعْ عنك الكثير فكم كثيرٍ

يُعافُ، وكم قليلٍ مُستطابِ

وما الُّلجَجُ المِلاحُ بمُروياتٍ

وتلقى الرِّيّ في النُّطَفِ العِذَابِ

والمصور والرسام يصور كل ما تمر عليه عدسته فهي تلتقط المناظر وترسمها أمام عينيك وهذا شاعرنا ابن الرومي رسم لنا حياة الصديق الذي نسميه صديقاً وما هو بصديق فإنّ العداوة تستفاد من الأصدقاء فينقلب لك عدواً مبيناً فهو ينصح بعدم الإكثار من اتخاذ الأصدقاء لأنك كل ما استكثرت الصديق استكثرت من العدو في رأيه، هذه رؤياه. فالصداقة هي مثل الطعام فإذا اكثرت من الطعام تتحول إلى تخمة ومن التخمة يتولد الداء، ويؤكد رؤيته في صداقة البشر أو صداقة الناس، فإنك برغم ما استقللت من الأصدقاء فإنك لا تظفر إلا بذئاب في صور أناسي

تلبسوا في ثياب ذئاب تريد أن تبتلعك، لذلك ينهى عن الاستكثار وعليك بالقلة المستطابة حتى تنجو من الذئاب ويضرب مثلاً بأنَّ البحر المر لا يروي الصادي والنطف الحلوة أي القليل من الماء الحالي يطفئ ذلك الصدا.

وقال يذم شجراً غير مثمر:

أيا شجراً بين الرَّسيسِ فعاقلٍ
منحتك ذَّمي صادقاً غيرَ كاذبِ
نَدَيتَ ولم تورق ولستَ بمُثمر
فكن غَرَضاً مُستهدِفاً للنوائبِ
فما فيك من ظل لغُلِّ ظهيرةٍ
وما فيك من جدوى لجانٍ وحاطبِ
وفيك على حرمانك الخيرَ كلَّهُ
من الشوك ما لا وَكْنَ فيه لآئبِ
وأحسب ذاك الشوك لا شك بينه
أفاعٍ، فلا أسقيتَ صوبَ السحائبِ

ونقف مع ابن الرومي في منظر تصويري أبدع فيه، وذلك

المنظر يرمز به إلى البشر، وبالأحرى للأصدقاء.. الأصدقاء الذين يتظاهرون بالحبِّ وهم بعيدون كل البعد، فيرى فيهم كما يرى في الشجرة التي لا تورق ولا تثمر برغم سقيها، فهي تحمل أشواكاً تدمي من اقترب إليها، وهذه الإشارات الرمزية البعيدة في دقتها وإشاراتها كأننا نقرأ شعراً رمزياً في عصرنا هذا، ولكنه يختلف عن الشعر الرمزي الذي يغرق في الرمزية حتى يحتاج إلى شرح، وقد يعجز شاعرها عن حل تلك الرموز، فلا يفصح عن معانيها، فتبقى كلمات جوفاء لا معاني لها. فاقرأ هذه القطعة لترى مرئياتي وستوافقني إن شاء الله.

وقال في صفة الفراق:

المـوتُ دون تـفرُّقِ الأحبـاب
وعذاب بأيـهمُ أشدُّ عـذابِ

لم تُبْلَ مذ خُلقتْ نفوسُ ذوي الهوى
يوماً بمثل ترحُّلٍ وذهابِ

بانوا بلُبِّـكَ رائحين وخلَّفوا
لك دمعةً موصولةَ التسكابِ

فسقاهُمُ نوءُ السِّماك بما سَقوا
خديك بالعَبرات صوبَ سحابِ

وابن الرومي قد تفنن في شعره وتصويره فكان وصافاً بارعاً لعدة مناظر كثيرة، ونقف هنا لنحلل منظراً متحركاً يصف فيه ابن الرومي مرارة الفراق.. وأمرَّ الفراق الذي يفصل الحياة ويبعد الموتى عن الأحياء، وأمضّه فراق العشاق عن العاشقين، فالموت هو أمضُّ من تفرق الأحباب لأنه فراق لا لقيا بعده، وما يعانيه الأحباب من عذاب الفراق فهو أشد عذاب يقع على نفوسهم، ويرى ابن الرومي أنّ نفوس المحبين لا تُبلى ولا تتأثر إلا يوم فراقهم لبعضهم البعض، فإن هم فارقوك سلبوك عقلك وتركوك دمعة تنسكب على الخدود، وهذا التصوير تصوير رائع، وأخذ ابن الرومي يدعو لهم لعله يخفف لوعتهم وعذابهم الذي يعانوه من أجل الفراق طالباً من السماكين أن يهطل عليهم المُزن ويريحهم بنفحة تمر عليهم لتخفيف ما بهم.

وقال في قالي الزلابية:

ومُستقرٍ على كرسيّهِ تَعِبٍ

روحي الفداءُ له من مُنْصَبٍ نَصِبِ

رأيته سَحَراً يقلي زلابيةً

في رقَّةِ القِشْر، والتجويف كالقَصَبِ

كأنما زيتُهُ المَغْليُّ حين بدا

كالكيمياء التي قالوا ولم تُصَبِ

يُلقى العجينُ لُجيناً من أناملهِ

فيستحيلُ شبابيطاً من الذهبِ[1]

ونريد هنا أن نسجل منظراً وصفياً متحركاً كأنك تشاهد شريطاً سينمائياً أمام عينيك عندما وصف ابن الرومي قالي الزلابية نفسها فأبدع أيما إبداع، كيف بدأ بهذا الوصف.. بدأ يصف طاهي الزلابية بأنه مستقر على كرسيِّه ولكنه مجهد من التعب ومضنً من العمل لأن الزلابية تحتاج إلى دقة وتأمل في صنعته، بعد وصفه لصانع الزلابية.. صور الزلابية نفسها والوقت الذي يقلى فيه عندما رأه سحراً، ووقعت عين ابن الرومي على تلك القطعة الرقيقة المجوفه وهي تقلى كأنها قصب، وشبه الزيت الذي تقلى به بالكيمياء التي قالوا ولم تُصبِ، وأوغل في الوصف فوصف كيف تنزل تلك القطع من تلك الأنامل الفضية إلى المقلاة كأنها شبابيك أو قطع من الذهب. فإنَّ هذه صورة وصفية استوحاها الشاعر من الواقع لا من الشعر التقليدي.

---

(١) شبابيطاً: "شبابيكاً" والشبابيك: الأقراص التي تشبه الشباك.

قال في المداعبة

يـا طيِّبَ الثغـر والمجـاجهْ

اقـضِ لنا حـاجـةً بـحـاجـهْ

وأنـت يا سيـدي رخيـصٌ

بخلعِ كسرى عليك تـاجَـهْ

عَـرِّجْ عـلينا نُصِبْ غَـدَاءً

ونُعْمِلِ العودَ والزجاجـهْ

يـا حسنَ الوجه لا تَسَـمَّجْ

فيُفسِدِ الحُسْن بالسَّمـاجَهْ

هل مـانعي حاجـتي مليحٌ

خِلْوٌ من البغض والفجاجَهْ...

وإنـمـا حـاجـتـي إليـه

حاجة ديك إلى دجـاجـهْ...

ونريد هنـا أن نعطي عن ابن الرومي صـورةً حيـة فهو شـاعر يمثل عصره ويرسمه بريشة رسام دقيقة التصوير أو بإزميل نحات يجسد التماثيل، فـابن الرومي جسد عصره ورسم الصور التي

شاهدها وحتى في دعابته، فرسم في هذه الأسطر مشهداً داعب فيه ابن الرومي من يحبه برغم ما فيه من أدب مكشوف سنشير للكلمات التي فيها فحش بنقاط ولا نريد أن نزيد على هذا المنظر الدعابي بشرح أوسع مما أعطينا عن ابن الرومي في صوره ومشاهده.

وقال في روضة:

ومونقةِ الرواد مهتزة الربا

يحاسِّنُها سارٍ وغادٍ ورائحُ

توقَّد فيها كلما تَلَّعَ الضحى

مصابيحُ تذكو حين تخبو المصابحُ

تُضاحك نُوَّارتُها زهرَاتها

لها أَرَج في نافح العطر نافحُ

إذا مدّها المهموم في صُعدائه

إلى قلبه انساحت عليه الجوانحُ

زجرتُ ثناء الناس ثم انتجعته

ولم يتخالجني سَنيح وبارحُ

وكأننا في مسرح نشاهد ممثليه يقومون بأدوارٍ فابن الرومي جعل الحياة له مسرحاً وكان يمثل هذه الحياة في مناظر متباينة ويصورها فيبدع في تصويرها فاسمعه وهو يصور روضة من رياض بساتين بغداد: فهذه الروضة مونقة يرتادها العاشقون لجمال الطبيعة التي تتكشف عن حسنها فيقرأ أسرارها الشعراء أو الذين فهموا وتذوقوا أسرار الجمال فهم يقرؤون محاسنها والأسرار التي يبدعها خالق السماوات والأرض عندما تسكب السماء الأمطار فتتفتح الأزهار وتبتسم الزهور، ويزداد جمالها عندما تشرق شمس الضحى على تلك الورود والأغصان فتتوهج فكأنها مصابيح تغنيك عن كل المصابيح، وتتجلى في مناظرها الجميلة عندما يضاحك النّوار تلك الورود فتكون جلاءً لهموم المهموم عندما يزورُها ويأخذ مقعده منها ويتوسط بين أنهارها وأغصانها فينفض عنه كل غم وهم فكأنه لم يمر بأوساط تلك الحياة، ويختم هذا المنظر عندما دخل هذه الروضة الأنيقة بزجره لثناء الناس ونسي تشاؤمه.. فابن الرومي من المتشائمين الذين كأنهم خلقوا وصيغوا من شؤم، وسنتحدث عن شؤمه فلم يخالجه شؤم ولم يمر به.

قال وقد أجاد إلى الغاية

خَلِّ الزمانَ إذا تَقَاعَسَ أوْ نـجَـحْ

واشْكُ الهمومَ إلى المُدامةِ والقدَحْ

واحـفظ فـؤادَك إنْ شَـربتَ ثلاثةً

واحـذرْ عليه أن يطيـرَ من الفـرحْ

هـذا دواءٌ للـهـمــومِ مُــجَـرَّبٌ

فاسمع نصيحةَ حازمٍ لك قـد نَصَحْ

ودع الزمانَ، فكم نصيـحٍ حـازمٍ

قد رام إصلاحَ الزمان، فمـا صَلَحْ

وهنا ابن الرومي صار نواسياً، فكأنه لبس روح أبي نواس فوصف لنا الكأس وابنة العنقود وهي في نظره تنسي الهموم بل تدفنها في كؤوسها ويعيش من يهواها في فرح وينسى الترح، هكذا صور لنا ابن الرومي ابنة العنب، وإن كان لم يصل إلى ما وصل إليه النواسي في دقة وصفه وشعره، فإنه فريد في باب الخمريات، وإن كنا لا نوافقهما على مرثياتهما إلا أننا نقدر الفن من حيث إنه فن، وفي مرثيات ابن الرومي إنّ هذه القطعة هي من نصائح حازم نصح بها أخلائه وكم من مصلح أراد أن يصلح الزمان فما استطاع وما صلح هو حتى يصلح الزمان.

وقال يخاطب قوماً لاموه على الهجاء:

قيـلَ لي: لِمْ ذَمَمْتَ كُلَّ البرايـا

وهجوتَ الأنـامَ هجواً قـبيحا ؟

قلت: هَبْ أنَّني كذبْتُ علـيهم

فأروني من يستحـقُّ المـديحا ؟

****

وسبق أن تحدثنا عن ابن الرومي أنه هجّاء فظيع الهجاء يوغل في هجائه حتى يفحش فيه، وقد جرّد ابن الرومي من نفسه لائماً يلومه على ذلك الهجاء القاذع، أو لعل هناك شخصاً لامه لم يذكره ابن الرومي وعلى كل حال نشرح هنا اللوم الذي كتبه ابن الرومي، فلائم له يوجه له سؤالاً أيها الشاعر لماذا هجوت كل البرايا، وكان هذا الهجاء للأنام هجاءً قبيحاً فكان عذره يشبه هجائه فعند ابن الرومي لم يكن هناك بشر أو فرد من البشر يستحق المدح، ولكن ابن الرومي نسيَ مدحه الملوك العباسيين والأمراء والوزراء ومديحه لأشخاص ليسوا بأمراء أو وزراء مثل إسماعيل بن بلبل وأمثاله.

ومن قصيدة طويلة يرثي بها ابنه قال:

بكـاؤكُمـا يشفي وإن كان لا يُـجـدي
فـجُودا فـقد أودَى نظيركُما عندي

بُنَـيَّ الـذي أهـدتْهُ كفَّـايَ للـثَّرى
فيا عزَّةَ المُهدَى ويا حَـرة المُهدي

ألا قـاتَلَ اللَّهُ الـمنـايا ورَميَـهـا
من القومِ حبَّات القُلوب على عَمْدِ

توخَّى حِمامُ الـموت أوْسَطَ صبيَتي
فـلله كـيفَ اختـار وَاسطـةَ العِـقـدِ

على حينَ شمْتُ الخيـرَ من لمَحَاتِهِ
وآنسْتُ مـن أفـعــالـه آيــةَ الرُّشْدِ

طَـوَاهُ الرَّدى عنِّي فأضحــى مَزارُهُ
بعيداً علـى قُـرْبٍ قريـباً على بُعْدِ

ومما يثبت قولي إنّ ابن الرومي شاعر رسام حساس عاطفي، فشاهد له منظراً حزيناً صور فيه رثاء ابنه.. الابـن الـذي هـو أوسط أبناءه فعصر فيها قلبه فكان فيها مصوراً لم يكن رثاؤه كرثاء

الشعراء التقليديين" إن كسفت الشمس وغارت البحار إلى أمثال هذه الجمل التي لا واقع لها وهي تحمل مسحة من التقليد بدون أن تتأثر العاطفة ولا تجسد قطعة من الحنان أو من الحروف المأساوية الباكية، وأنا أترك هذا المشهد للقارئ ليتفاعل معه ويتعامل تعامل النص مع النص.

وقال ابن الرومي في السراج:

وحـيَّـةٍ فـي رأسـها دُرَّةٌ
تسبح في بحرٍ قصير المدَى

إن بَعُدَت كان العمى حاضراً
وإن دنَت أن طريق الهدى

وشاعرنا ابن الرومي في تصويره إذا رسم منظراً أو صور مشهداً يصوره كانك تشاهده وتعيش معه، فهذا الشاعر مثَّل عصره ولم يعش يجتر من الشعراء الذين عاشوا في مدرسة التقليد وأخذوا يصورون الناقة والصحراء والرمال و هم يعيشون في القصور وينامون على الأسِّرة الوفيرة، فاسمعه في مشهد يصور السراج.. السراج الذي كان يستعمل في عصره ويتعامل معه تعامل الوصاف الرسام، فالسراج الذي في عصره هو كمثال حيَّة في رأسها درة

وهذه الدرة هي الضوء الذي ينبعث منها فيزيل الظلماء الذي عبّر عنه الشاعر بالعمى، فهذا السراج عندما يطفئ يظهر لك طريق العمى أي الليل المظلم وإن أشعلته وقربت منه فبان لك طريق الهدى وهذا تعبير فيه دقة التصوير كأنه صور الظلام بالعمى والضوء بالهدى وهو اقتباس من القرآن العظيم الذي فتح للفكر أضواء معاني عميقة لمن وعاها .

وقال يعتذر عن الخضاب:

لم أخضب الشيب للغواني
أبغي به عندهم ودادا
لكن خضابي على شبابي
لَبِسْتُ من بعده حدادا

وابن الرومي ينتقل بريشته من مشهد إلى مشهد تصويري، وكل مشهد تقف أمامه وقفة المتأمل الذي يعجب بالصور وما فيها من أسرار خفيّة وتشير تلك الأسرار إلى ألغازٍ بعيدة المرمى لا يفهمها إلا الشعراء أو المصورون الذين أوغلوا في معاني التصوير ودقتها فاسمعه يقول إنه لم يخضب الشيب أي يصبغه باليرنأ أو بالصبغة السوداء حتى يخفيها فتوده الغواني إنما خضب شيبه حداداً على شبابه.

وقال ابن الرومي:

وإخوانٍ اتـخـذتـهـمُ دروعـاً

فـكانـوهـا، ولـكــنْ لـلأعـادي

وخِلتـهـمُ سـهامـاً صائبات

فـكـانوهـا، ولـكن فـي فـؤادي

وقالـوا: قد صفت منا قـلوبٌ

لـقد صَدَقـوا،ولكن مـن ودادي

****

وابن الرومي كالنحلة ينتقل من زهرة إلى أخرى، ولكن بينه وبين النحلة بون شاسع، فالنحلة تطير من غصنٍ إلى آخر وتمتص تلك الزهور، أما ابن الرومي فهو كعدسة المصور ينتقل من منظر إلى آخر، وهذا المنظر يشترك فيه مع النحلة في جمالها وخفتها فنقف معه لنشاهد منظراً تصويرياً يصور فيه بعض البشر الذين يدّعون الأخوة، ولكنهم لا يحملون منها شيئاً، وقد أبدع في هذا المنظر الرائع فهو اتخذ إخواناً فكانوها، ولكنَّ تلك الأخوة كانت للأعادي موجهة ضده، وظن أنهم أسهم صائبات وحققوا ظنه ولكن عادت تلك السهام لتمزق فؤاده، وادّعوا أن قلوبهم مفعمة له

بالود، فهو يسخر من ذلك الود المزيف، فهو يصادقهم على أنَّ قلوبهم خالية من ذلك الود.

وقال يصف الكتان:

وحِلسٍ من الكتان أخضر ناعمٍ
توسَّنه داني الرَّباب مَطيرُ
إذا درجت فيه السّمال تتابعت
ذوائبهُ حتى تقول: غدير

****

وابن الرومي يصور عصره ففي عصره غرق أهله في الترف والنعيم، فاسمعه وهو يصور الكتان الذي كان يستعمل في عصره وهو يصوره بتصوير الروض المطير حتى يبدع في ذلك المنظر البهيج واحكم على ذلك المنظر أيها القارئ بنفسك.

وقال يصف الربيع:

أصبحَتِ الدنيا تروق مَنْ نظرْ
بمنظرٍ فيه جلاءٌ للبصرْ
واهاً لها مُصطنعاً لمن شكرْ

أثنَتْ علــى اللَّه بــآلاءِ المــطــرْ

فالأرضُ فـي روضٍ كأفـواف الحِبَـرْ

نــيِّـرةُ النُّــوار زهـــراءُ الــزهَـــرْ

تـبرَجـــت بـعـــد حـيـاءٍ وخــفــرْ

تـبـــرجَ الأُنـــثى تـصـدَّت لـلـذكــرْ

ولا نزال نؤكد ونقرر ما ذهبنا إليه من رؤية في شعر ابن الرومي أنّ هذا الشعر يجسد العصر الذي عاشه وأيام بغداد وما فيها من صور طبيعية منحها اللّه لتلك المدينة في طبيعة خلابّةٍ فنشاهد هذا المنظر الذي وصف فيه الشاعر الطبيعة في فصل الربيع الذي هو روح الحياة فهو يجد لك الحياة في الإنسان في الشجر في الثمر فتزهرُ الأرض وتبدو الطبيعة في عري فاتن، ولي قصيدة تحت تحية الربيع وصفتُ فيها الطبيعة في الربيع وكيف تعرَّت تلك الطبيعة فهي في ديوان النغم الجريح وقد أذاعتها عدة إذاعات ومن شاء فليرجع لها في الديوان المشار إليه، ولم أقرأ لابن الرومي أي حرف من حروفه عندما كتبت تلك القصيدة فابن الرومي يعيش كما نعيش اليوم فيعتبر شاعر رومانسي يتذوق فيصور ما يتذوقه وفي هذه القطعة التي في وصف الربيع منظر من

مناظر الطبيعة الخلابة وأحسن ما فيها المثَل الرائع، فالأرض قد تبرجت بعد أن كانت أنثى خفرة حييّة كما تتبرج الأنثى عندما تتصدى للذكر.

وقال في وصف الشعر:

قولا لمن عاب شعر مادحه ... أما ترى كيف رُكِّب الشجرُ؟
رُكِّب في اللحاء والخشنَ الـ ... ـيابس والشوك بينه الثمرُ
وكان أولى بأن يهذّب ما ... يخلق ربُّ الأرباب لا البشرُ
فلم يكن ذاك بل سواه من الـ ... ـأمر لشيءٍ جرى به القدرُ
والله أدرى بما يدبره ... منا، وفي كل ما قضى الخيرُ
فليعذُر الناس من أساء ومن ... قصر في الشعر، إنه بشر
مطلبه كالمغاص في دَرك اللجة ... من دون دُرها خطرُ
وليذكروا أنه يكدّ له الـ ... ـعقل وتُنضى في قرضه الفِكرُ
وفيه ما يأخذ التخيرُ من ... غالٍ ثمينٍ وفيه ما يَذرُ
وليس بدٌّ لمن يغوص من الـ ... ـجرف لما يُصطفى ويُحتقَرُ

ونقف مع ابن الرومي وقفةً تأملية شاعرية لأنه يصف الشعر ويقدم أعذاراً عن الشعراء لناقديهم في صورة وصفية متحركة فالشاعر لا يستطيع أن يأتي بشعر متكامل لا عيب فيه في صورة إبداعية من أول القصيدة إلى آخرها فيضرب مثلاً بالشجر ويوصفه

وصفاً دقيقاً ولماذا لم تتناسق أغصانه، والذي خلقه هو خالق كل شيء وهو القادر على تنسيقه وتجميله، فهنا أقف وأريد أن أهمس في أُذن ابن الرومي من وراء جدار التاريخ ومن وراء القرون الطويلة التي تفصل بيننا وبينه، إن خلق الشجر ليس فيه منسق وغير منسق حتى يحتاج إلى تشذيب من البستاني إنما هو في صورة جمالية متناسقة، وجماله في هذا التنسيق الجميل البديع الذي أوجد له منظراً حرك عواطف ابن الرومي ووصفه ذلك الوصف ولكنَّ السرَّ لم ينتبه له ابن الرومي فيشير له للنقاد، إنّ الشاعر كواحد من البشر يحمل النقص والتقصير فبعبقريته لا تجيد القصيدة من ألفها إلى يائها في أسلوب لا يتبدل أو لا ينزل بلاغياً إلا ما شذَّ ونذر وهذا السر لا تجده إلا في معجز الخاتم القرآن المبين فكأنك حينما تقرأه تجده أسلوباً واحداً بليغاً لا يتغير فيهبط من الذروة إلى السفح بل هو دائماً في أعلى ذروة البلاغة إن صحَّ لي هذا التعبير وكلما قرأته وكررت قراءته أحسست بتجدد أسلوبه وبنفحة روحية تهبط عليك من أول قراءتك للسورة إلى آخرها وهكذا دواليك لا تنقضي هذه العجائب ولا هذه الأسرار ولا تتأثر ولا تتغير هذه البلاغة لأنه كلام رب العالمين خالق كل شيء، فإن التعبير يضيق عن وصف القرآن ولا يصل له مفكر أو بليغ.

قال يصف الخباز:

ما أنسَ لا أنسَ خبازاً مررتُ به

يدحو الرُّقاقا وشكَ اللمحِ بالبصرِ

مـــا بين رؤيتــها فـي كفـه كـرةً

وبـــين رؤيتــهـا كـوراءَ كالقــمــرِ

إلا بمـقــدارِ مـا تنــداح دائــرةٌ

في صفحة الماء يُرمَى فيه بالحجرِ

ونريد أن نقف مع ابن الرومي وهو يصف خبازاً حينما مرَّ عليه وشاهده كيف يدحو الخبز فأوحى له ذلك المنظر قطعة رائعة، وصور ذلك الخباز كيف يدحو الخبز في لحظات، فإذا هي كدائرة كالقمر بسرعة فائقة مثلما تلقى حصاة في الماء فتنداح له كرة فهو لا ينسى ذلك المنظر، فهو صورة رائعة في زخم وإبداع.

وقال في الهريسة:

تعالوا إلى من عُذِّبت طول ليلها

بأضيقَ من حبسٍ وطيسٍ يسعَّرُ

وقد جلـدوها الحد وهي بريئةٌ

فحيَّ على دفن الشهيدة تؤجروا

ونحـن ننتقـل مـع ابـن الرومـي مـن مـشهد رائـع إلـى مـشهد تـصويري إبـداعي، فقـد وصـف لنـا الهريـسة وصـفاً دقيقـاً كـأنـك تشاهد طبخهـا، فيـصف الهريـسة أنهـا عذِّبت طـول ذلـك الليـل وهـي محبوسة في قدر يسعر بالنـار ومثّلَّ ضـربها بـالـملّاس (وهـو يـشبه الملعقة)، إلا أنـه أضـخم وأطـول منهـا ولـه خـروق فـي أسـفله يـشبه الكف، فكأنها أقيم عليهـا حـد الجلـد وهـي بريئـة فهلـم علـى دفـن الشهيدة وهل يريد ابن الرومي دفنها في البطون أم ماذا.

وكان ابن الرومي ممن يخالف الناس ويعكس القياس. فيـذم الحسن، ويمدح القبيح فقال:

فـي زخـرفِ الـقول ترجيح لقائله

والـحـقُّ قـد يعتـريه بعضُ تغييرِ

تقول: هـذا مُجاجُ الـنحـل تمدحهُ

وإن تَعِبْ قلـت: ذا قَيْء الزنابيـرِ

مدحاً وذماً، وما جاوزتَ وصفَهمـا

سـحـرُ البـيان يُـري الظلمـاءَ كالنورِ

إنّ شارح ديوان ابن الرومي عندما قدم هذه القطعة وصف ابن الرومي بمخالفته للناس وأنه يذم الحسن ويمدح القبيح ولا يفهم هذا المعنى من هذه القطعة وفي تصوري أنّ ابن الرومي يرى أنّ الفصيح أو المنطيق يقدر على أن يزخرف القول حتى يؤمن بصدقه من يسمعه ولو كان باطلاً ويضرب مثلاً إذا أردت أن تمدح قلت هنا عسل مصفى وإن أردت أن تذم قلت قيء الزنابير والمعنى واحد إنما اختلف التعبير، وقد فسر الشاعر ما ذهبتُ إليه من رؤية في تفسيري حيث قال مدحاً وذماً، وإنه أوضح ما أشرتُ إليه في تصويره، فسحر البيان في نطقه يصور لك الظلماء كالنور.

وقال يصف روضة:

إذا شئتُ حيَّتني رياحينُ جنةٍ

على سُوقها في كل حينٍ تنفَّسُ

وإن شئتُ ألهاني سماعٌ بمثله

حمامٌ تغنَّى في غصونٍ تُوَسوسُ

تُلاعبها أيدي الرياح إذا جرتْ

فتسمو وتحنو تارةً فتنكِّسُ

إذا ما أعـارتها الصَّبا حركاتِهـا

أفـادت بها أُنـسَ الحيـاة فتؤنسُ

تَوامض فيها كلمـا تَـلـع الضحى

كواكبُ يذكو نورُهـا حيــن تُشمسُ

وننتقل مع ابن الرومي كما تتنقل الحمامة من غصن إلى غصن آخر، ونعيش معه في وصف روضة من رياض جنان الحياة، فكأننا نعيش بين أشجارها، ونصغي لخرير مياهها، وعذوبة ألحان حمامها فاسمعه يتحدث ويصف تلك الروضة في صورة رائعة، فهي تحييه في رياحينها وأزهارها في كل وقت على اختلاف فصول الحياة فهي قائمة على سوقها تتجدد مع تطور فصول العام وتسمعه هديل حمامها ويبصر كيف الريح إذا أعارتها حركاتها وهنا تعبير دقيق فكيف أُلهِم ابن الرومي هذا التعبير الجميل إنه فيضٌ من خالق السماوات، ويصور كيف إذا سطعت الشمس على أغصانها وكأنها سماء كلما أشرقت الشمس كواكب مشمسة.

وقال في بيت مفرد:

أَرِقتُ كأَنِّي النجمُ يجري ويكنسُ

مدى ليلتي أنضو دُجاها وألبسُ

وصور نفسه في سهاده كأنه نجم ساهر لم يمر بجفنه سِنة ولا نوم وهذا التعبير كثير ما تعبر عنه الشعراء حتى أصبح معنىً مبتذلاً ليس فيه من الغرابة ولا البلاغة شيء.

وقال في الورد:

أُفضِّلُ الورد على النرجس

لا أجعل الأنجم كالأشمسِ

ليس الذي يقعد في مجلسٍ

مثل الذي يمثلُ في المجلسِ

وكان ابن الرومي يصور ما تقع عليه ريشته التصويرية فيبدع في تلك المشاهد والمناظر، فهنا يصور لنا النرجس والورد، ويرى أن الورد أفضل من النرجس، فالنرجس عنده يشبه النجوم، والورد في حمرته يشبه الشمس، والشمس أفضل من النجوم بلا شك ولا ريب إذا صح هذا التمثيل بين الورد والنرجس ، فالنرجس يقع في المجلس أما الورد في رأي ابن الرومي يمثل في المجلس، ونحن نخالفه في هذا الرأي الشاعري فالنرجس هو من سحر العيون والورد من سحر الخدود والعين أفضل من الخد لأنّ فيها سرُّ الجمال والسحر.

ونقف مع ابن الرومي في أسلوب من بعض أساليبه في الهجاء وقد أشرنا إلى ابن الرومي إشارة تدل على أنه هجّاء مفحش في هجائه، وقد علق شارح الديوان أن هذين البيتين من أفظع الهجاء فاسمعه يتحدث

وهو من أخبث ما جاء في الهجاء:

آيستُ من دهري ومن أهله

فليس فيهم أحدٌ يُرضى

إنْ رُمتُ مدحاً لم أجدْ أهله

أو رُمتُ هجواً لم أجد عِرضا

وقد أخطأ الشارح في مقولته في هذين البيتين على أنهما من أفظع الهجاء وإنّ تلك المقولة غير صحيحة وإنما هما يصنفان الخلق إلى صنفين وهذه خاطرة من خاطرات ابن الرومي لعلها وليدة التشاؤم.

وقال في الزهد ومنها:

تتجافى جنوبُهُمْ

عن وطىءِ المضاجعِ

كلُّهم بين خائفٍ

مستجيرٍ وطامِعِ

تركـوا لـذَّة الكـرى

للعيـون الـهواجـِعِ

ورعَوْا أنجـم الدُّجـى

طالـعا بـعـد طالـعِ

لـو تـراهـمْ إذا هُـمُ

خـطروا بالأصابـعِ

وابـن الرومـي تفـنن فـي شـعره ومـن الغرائـب والعجائـب أن كتب في الزهد فأجاد وهو يصف الزُّهاد كيف تتجافى جنوبهم عـن المضاجع، فهم بين مستجير مـن النـار وخائف مـن ربه وإن كانـت هـذه الـصورة ومـا بعـدها اقتبسها مـن كتـاب الله العظيم ومن أقوال الخاتم صلى الله عليه وآله فالإمام علي عليه السلام خطبة في الزهـد عنـدما ألقاها على همـام لـم (ينتهـي) منهـا حتى انتهى همـام مـن الحيـاة، وهذه الخطبـة أسمى بلاغـة وتصويراً، وأرفـع بيانـاً، ويستمر ابن الرومي في وصفه للزهـاد فلا يخرج عن الأسلوب الـذي اقتبسه ولـم يـأتِ فيـه بجديـد فهـم عـافوا لـذة الحيـاة وهـم سـاهرون كـالنجوم إلـى آخـر قـصيدته الوعظيـة، وكلهـا مقتبـسة مـن الأسلوب الذي أشرنا له.

وقال يهجو:

وطــويــلُ الــقــرن إلا أنــه

لاحقٌ بالأرض كالـقـرد الجزعْ

طال قـرناه معاً فارتــفــعـا

وأبــتْ قــامــتــهُ أن ترتــفــعْ

فـهـو إن فـكـرت فـيــه رجــلٌ

شبَّ قــرنــاه ولـكــن ما زُرِعْ

سوف تـدري من تمرَّستَ بـه

يا أبا حفصٍ،أخا الرأس القرعْ

وهذه الصورة من أساليب الهجاء الذي كان يتخذه الجاهليون وشعراء العصر الأموي وشعراء العصر العباسي سلاحاً يقذفون به في صدور خصومهم والحكام فهو يشبه الصحافة عندنا اليوم في القرن العشرين والواحد والعشرين عندما تخصص صفحات لانتقاض الحكام أو الأدباء لأنّ العصر يتطور ويواكب الزمن فكان العصر السابق يستعمل الطريقة النقدية عن طريق الشعر فقط لأنه هو الأداة والصوت الذي يصرخ ويعلن ظلامة الظالم الذي يتصور أنه ظلمَ.

وقال في هجاء مغنية:

بـتُّ وبـاتَ الصبيـانُ في أرقٍ

مـن بحَّـةٍ لـم تـزل تُفزِّعُنا

يبكون من خوفهـا ويُسهـرني

بكاؤهم، فـالبـلاء يجمعَنـا

نحتـــالُ للنـوم كـي يـواتيَـنـا

بكـل شـيء ولـيـس ينفعنا

لا حـفظ الله تلك مُسـمِعـةً

ما يكره السامعـون تُسمعنـا

ومن أساليب ابن الرومي في تفننه في الهجاء اللاذع هجاؤه لمغنية وهجاء ابن الرومي لا يتولد عن واقع إنما هو يجيء لسبب من الأسباب أما حرمانه من عطية مدحةٍ مدح بها شخصاً ولم يعطه أو لم يجزل له العطاء الذي يتصوره ابن الرومي أو انتقد شعره أحد أو خالفه في رأي فكان هجاؤه ليس حقيقياً ويخرج بهجائه من الشخص إلى عائلته إلى أمه إلى زوجه ويفحش فيه إفحاشاً لا يليق بالأدباء أو الشعراء، ونقف معه في هجاء مغنية لعلها لم تغن له شعراً أو لم تتفق معه في شيء مما يهواه، فهو بات تلك الليلة مجهداً

مع أبنائه لأن تلك المغنية عندما ترجع ألحانها ترجعها ببحة تفزع ابن الرومي وتسلبه النوم، فأبناؤه يخافون من بلاء صوتها ويبكون فزعين وهو يشاركهم في بلاءين حسب تعبيره بلاء من تلك المغنية وبلاء خوفاً على أبنائه فهو يدبر له ولأبناءه حيلاً كي يستريح للنوم من ذلك الصوت ولكنه حاول عبثاً قلقاً والسهاد حليفاه، وهنا فاضت من قلبه دعوة تدعو على تلك المغنية بألا يحفظها الله ما دامت تسمعهم ما يكرهون.

وقال في كبير اللحية:

ولحيةٍ يحملُها مائقٌ
مثلِ الشَّراعين إذا أشرعا
تقوده الريح بها صاغراً
قوداً عنيفاً يُتعب الأخدعا
فإن عدا والريح في وجهه
لم ينبعث في وجهه إصبعا
لو غاص في البحر بها غوصةً
صاد بها حيتانَه أجمعا

إن ابن الرومي يتفنن كما قلنا في مناظره الوصفية فوصف ذا اللحية في صورة تمثله كأنك تشاهده وتعيش معه، فاسمع وصفه للحية يحملها أمقٌ تشبه الشراعين أي شراع السفينة إذا كل سفينة منهم شرعت شراعها للسير في البحر، وشبه تلك اللحية بالشراع تقوده الريح حتى يتعب ويثقل الأخدع وهو العرق في رقبته فهي سخرية من السخريات اللاذعة، فهذا هجاءٌ مُرٌّ وتصوير لاذع فكأنما الريح تلاعب تلك اللحية لكثافتها وطولها فلا ينبعث في وجهه حتى أصبع، ويولع ابن الرومي في السخرية فلو نزل بتلك اللحية البحر يغوص بها لاصطاد حيتانه كلها، وهذا من هجاء الساخرين الذين يسخرون بمن يهجوهم فهذه سخرية فظيعة.

ابن الرومي شاعر حساس يصور شعورهَ في كل منظر يحس به ويتذوقه ويتفاعل معه فهنا نقف معه في قطعة غزلية أبدع فيها في التشبيب فلنعش معه:

سقته ابنةُ العمريِّ من خمر عينها

ووجنتِهـا كأساً تُميتُ وتُدنفُ

فقال: امزجيها بالرُّضاب لعلَّه

يُسكِّنُ من سكر الهوى ويخفِّفُ

فصدَّتْ ملياً ثم جادت بريقةٍ

يزيدُ لها سكر المحبِّ فيُضعفُ

فراح بِضعفي سُكره من مِزاجها

وقد تُسأل العدلَ الولاةُ فتعسفُ

فهل من مزاجٍ زاد في سُكر شاربٍ

سوى ريق ذات الخال أم لستَ تعرفُ؟

فافتتح سيمفونيته بوصف لمحبوبته بوصفٍ شاعريٍّ حساس حيث صور سحر المقل والعين هي سر السر سر الجمال فشرب من سحر تلك العيون كأساً هي من أعذب الكؤوس كما شرب من ورد خدِّها كأساً سحرياً أماتته وأدنفته، فتحركت عاطفة الحبّ وانتشت فطلب من حبيبته أن تمزج تلك الكأس من لماها، لعلها تسكِّن الهوى العنيف وتخففه عندما أثارته، وتدللت الحبيبة لتزيده هياماً فوق هيامه ثم استجابت لمزج الكأس من لماها، فزادته سكراً على سكره أضعاف السكر، ويشبه ابن الرومي ذلك الموقف الغرامي كالراجي أو المسترحم من بعض الولاة بالرفق أو بالعدل ولكنهم يعسفون أي يجورون والمحِبُّ قد يجور على حبيبه ولكنه جور متدلل متغنج، ويعلل ابن الرومي هذا

السكر بذلك الريق العذب الذي امتزج في تلك الكأس فشرب منها المحبوب ولولا ذلك الريق لما حدث هذا الغرام وهذا السكر.

وقال في ذم المطال:

رأيتُ التقاط جَنى نخلةٍ
إذا ساقطْتهُ، ولم تَرْقَها
أكنَّ لكفِّك من شوكها
وإن هي لم تُوفها حقَّها
لقد أحسنتْ نخلةٌ أنزلتْ
على كفٍّ ممتاجِها رزقها
وما جشَّمتْ كفَّه شوكَها
ولا جشَّمتْ رجله سُحقها

وننتقل مع ابن الرومي إلى منظر نشاهده عياناً كأننا معه ونحن نشاهد هذا المنظر في بلادنا على الطبيعة ونعيشه كما عاشه وهو وصف النخلة.. النخلة التي فيها غذاء الجسم الرُّطَب الجنِّي الذي فيه منافع لا تعد ولا تصور، وقد أشار إلى ذلك القرآن الكريم في أنّ رطبها يعطي للمرأة النفساء غذاءً يساعدها على

نفاسها وشاهدنا على ذلك الآية الكريمة التي في سورة مريم ﴿وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ﴾ فابن الرومي اقتبس من هذه الآية الكريمة ومن الطبيعة فوصف النخلة ونختصر وصفه أنها تدر الرزق بدون عناء لذلك الشخص الذي يزرعها ويربيها بالسقي فيأكُل منها حينما تتساقط عليه رطباً جنيّاً بدون أن يتكلف من يريد الأكل منها فيتجشم الصعود لها، وابن الرومي لم يكن دقيقاً في هذا الوصف فطالما احتاج المؤبر لصعودها لتأبيرها وإنزال الرطب منها.

وابن الرومي قد أُصيب مضافاً إلى تطيره الذي يمنعه أياماً من مغادرة داره فهو معقد كأبٍ أُصيب بفقد أبناءه الثلاثة ورثاهم بقصائد كلها عاطفة ودمعة ونسجل هنا أنموذجاً قصيدة فراق التي رثى بها ابنيه

وقال في الفراق:

أطبقتُ للنوم جفناً ليس ينطبقُ

وبتُّ والدمعُ في خَديَّ يستبقُ

لم يسترح من له عين مؤرقةٌ

وكيف يعرف طعم الراحة الأرِقُ؟

محمـــدٌ وعــليٌّ فتَّـــا كـبـدي

إذا ذكـرتُهُما والـعيس تنطـلقُ

خِلانِ حلَّ بقلبي من فِراقـهما

ما كنتُ أخشى عليـه قبـلَ نفتـرقُ

قلبٌ رقيـقٌ تـلظَّت فـي جوانبـه

نارُ الصبابة حـتى كاد يحترقُ

ودِدْتُ لـم تـمَّ لـي حجّي بقربهمـا

مـا كل مـا تشتهيه النفسُ يتــفقُ

لا يعجب الناس من وجدي ومن قلقي

إن الـمسوقَ إلـى أحبـابه قـلـقُ

فنعيش مع ابن الرومي في مأساته لحظات، فابن الرومي لا تنطبق عيناه ولا يذوق نغبة من النوم ولا تداعب جفونه أصابع الكرى، فعيناه استبدلت النوم بالدموع التي تسيل على خديه، وهو يصور نفسه أنه لا يستريح ولا يهدأ لأنه ذو عينٍ ساهرة وقلب قلق فلا يذوق الراحة في هذه الحياة، فمحمد وعليٌّ ابناه صورتهما مرسومة أمام عينيه فيتخيلهما يتراقصان في بيته فيزيده ذلك

المنظر حزناً على حزن، فإنَّ الفراق مُرُّ المذاق ولا يشعر به إلا من فارقته أحبابه فيصورالفراغ الذي خلا فؤاده منهما ولم يقع في خلده الفراق فهو لحم ودم وعاطفة حساسة ففؤاده يكاد أن يحترق بنار الفراق، ونسجل باقي أبياته بدون تعليق، لكننا نشير إلى خطأ وجدناه في أحد أبيات هذه القطعة الرثائية في ابنيه والبيت هكذا .

وددِتُ لم تمَّ لي حجّي بقربهما   ما كل ما تشتهيه النفسُ يتفقُ

ولعل الصحيح

وددِتُ لو تمَّ لي حجّي بقربهما   ما كل ما تشتهيه النفسُ يتفقُ

وقد فاقه أبو الطيب المتنبي وإن كان السبق لابن الرومي حيث قال الشاعر العملاق:

ما كل ما يتمنى المرء يدركه

تجري الرياح بما لا تشتهي السفنُ

فعلى الأديب الناقد أن يفرق بين البيتين، وأكرر أن السابق ابن الرومي، ونعيش مع ابن الرومي بعد أن قضينا معه لحظات في رثاء ابنيه في ذم الدنيا.. والدنيا مملوؤة بالمآسي وبالأفراح فكل دمعة تعيش معها بسمة، وهكذا فاسمعه كيف يذم الدنيا.

في ذم الدنيا:

عـزَّتْ مطالـب دُنيا كلِّ ذي أدبٍ
وهـان مطلبُ دنيا الأنوكِ الخَرقِ

وقـدَّر الله فيـهـا أن يُذَلـلـهـا
فـهان مطلبها للجـاهل الـحـمقِ

فليس ينفـكُّ ذو علـمٍ وتجربـةٍ
من مأكلٍ جشبٍ أو مشربٍ رنِـقِ

وذو الجهـالة منهـا في بُلهنيـةٍ
مـن مسمعٍ حسنٍ أو منـظـرٍ أَنـقِ

تبارك العدل فيها حين يقسُمـهـا
بـين البريـة قَسْماً غيـر متـفقِ

فهو يصور حياة المفكر في هذه الدنيا كيف تعز عليه مطالبه وتتناثر آماله بينما تفي هذه الدنيا للأحمق الذي ليس عنده تفكير أو عبقرية يطلع بها على هذا البشر ليضيء لهم ويرشدهم، ويستمر في تصويرها فيراها أنها مذللة للجاهل بينما تعز على العاقل وهذه رؤية ابن الرومي ولعل شعراء كثيرين قبله وبعده ساروا في هذه الطريق.

ونريد أن نشير إلى عجز أول بيت من هذه القطعة كما وجدناه مرسوماً في الديوان ومن يقرأه ويتأمله بالحاسة الفنية يجده غير مستقيم ولعله وقع خطأ في الطباعة.

وقال في الخضاب

قل للمُسوِّدِ حين شيَّبَ: هكذا
غِشُّ الغواني في الهوى إياكا
كَذَبَ الغواني في سوادِ عذاره
فكَذَبْنه في ودِّهنَّ كذاكا

وقفة أيها القارئ لنعيش مع ابن الرومي في سهرة فكرية لنتمتع فيها بصوره الوصفية فاسمعه يصف الشيب الذي يفر منه كل امرئ وينمه لأنه هو فصل الخريف لكل إنسان، فهو يخاطب كل من يصبغ شعره المبيض ويحذره من غَشّ الغواني ويؤكده بالضمير المخاطب إياكا (أي إياك وغَش النساء)، فهو يعيش معهم وهو يكذبهم وهنَّ يكذبنه في ودِّهنَّ، فعلى رؤى ابن الرومي في هذه الصورة يعيش الزوج والزوجة أو الحبيب وحبيبته على ودٍّ مَلِقٍ مكذوب.

ونُورِد هنا ملاحظة على بيت من هذه القطعة فقد وجِد في الديوان مرسوماً:

قل للمُسوِّدِ حين شيَّبَ: هكذا

غِشُّ الغـواني في الهوى إياكا

والـصحيح هـي غَـش الغـواني إيـاكَ والغَـش مفعـول بـه إلـى الضمير المخاطب إياك المتضمن معنى الفعل وهو النهي عـن الغش بـصباغة الـشَّعر وإذا قرأنـاه علـى مـا رسـم فـي الـديوان بـصيغة فعل الأمر وقع الشاعر فـي تنـاقض ولا يـستقيم معنـى البيت.. فاستقامة معناه في ما صححناه.

قال في خالد القحطبي:

يا مَنْ يُسائلُ عن عشيرةِ خـالـد

الـنـاسُ كُـلُّهُـمُ عشـيـرةُ ذاكـا

فمتى هجوتَ أبا الوليد هَجَوتَهُم

وهَجَوتَ في عُرض الهجاء أباكـا

ولننتقـل مـع ابـن الرومـي فـي سـهرتنا إلـى أنمـوذج مـن هجائـه المقذع الذي لا يخلـو مـن فحـش إلا هـذه القطعـة قـد خلـت منـه فهـو يهجو خالـد القحطبـي، وطالمـا ملئ شعره مـن هجائـه حتـى أفحش وخـرج عـن نهـج الآداب، ولا أعـرف لمـاذا اتخـذ ابـن الرومـي هـذا الأسلوب المملوء بالقذاعة والفحش لمن هجاهم.

ولا زلنا في سهرتنا مع ابن الرومي الشاعر الرسام فقد وصف لنا منظراً مختلفاً، إنما هو منظر من المناظر المرضية ولكنَّ الشاعر خلق منها منظراً جميلاً فاسمعه كيف يصف وجه هذا الفتى الذي أُصيب بالجدري:

ما ضرهُ جُدَرِيٌّ حلّ وجنتَه
لولا النجومُ إذاً لم يحسنِ الفلكُ
إنّ العيونَ لتشتاقُ الرياضَ إذا
ما الزهرُ أشرق فيها وهو مُشتبكُ
ولن يزيدَ بهاءً تاجُ مملكةٍ
حتى يرصعَهُ بالجوهرِ الملكُ

ففي وصفه تمثيل جميل فإن الجدري لم يؤثر على وجنتيه فهو كالنجوم في السماء ولولا النجوم لما كان الأفق جميلاً، وإنَّ العيون لتشتاق الى منظر الرياض وتبتهج برؤيتها كما إنَّ تاج الملك لا يزان إلا بالجواهر، ولولا الجواهر لما كان تاج يزين رأس الملك وبرغم ما أضفى الشاعر الرسام على هذا المنظر المرضي من رتوش ولكنه سيبقى صورة مرضية عندما يزال منه الرتوش والطلاء وهذا أمر حتمي من الخالق لا مردَّ له ولا دافع له إلا الخالق الواحد القهار .

وقال يذم جيرانه:

جـــاركـمُ لا يُـعـــادُ مـن عِلـلهْ

وضيــفكُم لا يُسدُّ مـن خَلَلِــهْ

فاستعملوا الظلمَ والجفــاءَ بــه

فليس تلك السبيلُ مـن سُبُــلـهْ

مــا ضـرَّ مجـفُــوّكم جفــاؤكُـم

بالأمـس في عيــشه ولا أمَلِــهْ

لا إنْ جفوتُم قضى العـليلُ ولا

إن عُـدتُم تُنسِئون في أجـلِـهْ

وقفـةً مـع ابـن الـرومـي لنحـاوره ونقـضـي معـه الـسهرة فـي ليلـة مملؤة بالفـكـر وبالشعر وبالأدب وهنـا يـصف لنا ابن الرومـي منظـراً بـشرياً فيـه توجيـه ولـوم أو بعبـارة أصـح هـو انتقـاض لجيرانـه علـى أنهـم لـم يحـسنوا الجـوار، وهـم لا يـزورون جيـرانهم ولا يعـودون مرضـاهم فكـأنهم يعيـشون منبتـين فـي صـحراء القلـوب الجافيـة ويضيف ابن الرومي فـي عتابه أو نقـضه أنّ الجـار إذا لـم يُعد جـاره فهو لا يشفيه ولا يطيل أجله في عدم زيارته له.

وقال في تنكر الزمان:

إذا نلتَ مأمولاً على رأس برهةٍ
حسبتُك قد أحرزتَ غُنماً من الغُنمِ

ولم تذكر الغُرم الذي قد غرمته
من العُمُر الماضي ويا لك من غُرْمِ

رأيتُ حياةَ المرء رهناً بموته
وصحتَه رهناً كذلك بالسُّقمِ

إذا طاب لي عيشي تنغصتُ طيبه
بصدق يقيني أن سيذهبُ كالحُلمِ

ومن كان في عيش يراعي زواله
فذلك في بؤسٍ وإن كان في نُعمِ

طالما قررت أن ابن الرومي رسام ومبدع في رسمته الشعرية وهنا له رسمة فيها خطوط عن الحياة وعن الدهر، وهو يصور أنّ الإنسان إذا نال من هذه الدنيا نصيباً من تحقيق مناه فقد نال غنماً من الغنم، فينسيه هذا الغنم كل غرم غرمه من عمره الماضي ولكنه لم يصب في حسبته فهو لا يعادل الغنم وابن الرومي يصور

إلى المرء طيوفاً وأشباحاً مظلمة وحتى لو كان المرء يعيش في بحبوحة من النعم التي أنعم الله بها على عبيده فإنه لا يفرح بها لأنها ستزول ويزول المرء معها وهذه النظرة التشاؤمية انبعثت من روحه المعقدة التشاؤمية التي كثيراً ما تقعده في بيته فعلى المرء أن يتمتع بهذه النعم ويتجنب المعاصي ولا ينفقها إلا فيما يرضي من أنعم عليه بها وهو مولاه فاطر السماوات والأرض وهذه النظرة التشاؤمية تناقض نظرة الشاعر المتفائل:

وتمتع بالصبح ما دمت فيه

لا تخف أن يزول حتى تزولَ

وقال يرثي امرأته:

عينيّ جودا على حبيبكما

بالسَّجل فالسجلِ من صَبيبكما

لا تجمُدا لاتَ حينَ معذرةٍ

ما لم تذوبا لمُستذيبكما

فاستغزِرا دِرَّة السؤالِ على

بدرٍكما بلَّ قضيبكما

هذا فؤادي والرُّزء رزءكما

تبكي له عين مستثيبكما

فاستنكفا أن يكون غيرُكما

أبكى لما فات من نصيبكما

وابن الرومي هو شاعر مبدع في تصويره المناظر التي كتبنا عنها ومرت عليك أيها القارئ إلا أنه لم يبدع في رثاءه لزوجه ولم يسكب فيه حرارة العاطفة ونبع الشوق اللهيف ومرارة الفراق لحياة زوج التفت حياتها بحياته، وكما عبر القرآن الكريم أنها لباس له وهو لباس لها وقد أفضى بعضكم إلى بعض كل هذا لم يصوره ابن الرومي فجاء رثاؤه لزوجه رثاء تقليدياً لم ينبع من قلب ولم يكتب من دموع، ونحب أن نعطي لمحة مقتضبة عن هجاءه الفاحش الذي انحلَّ فيه ابن الرومي من الأخلاق والأدب إلى طريقة فحش قد يتأبى عنها الرعاع ويستحي منها العوام الذين لا يفقهون من الحياة شيئاً ولكن ابن الرومي برغم ثقافته وشعره التصويري مضى في هذه الطريق وحتى يقذف نفسه بالكبائر وبالصغائر غير مبالٍ وديوانه مملوء بهذا الأسلوب ولكننا نشير إلى قصيدة هي أخف وطأة مما في ديوانه من أساليب مقذعة فاحشة تحت عنوان الخلاعة، صفحة (١٧٠) المجلد الخامس طبعة بيروت، وهذه

القصيدة هي قصيدة من قصائد كثر ملأت ديوانه فعلى القارئ أن يرجع له ويقرأ ما فيه وبدورنا نترفع أن نذكر في هذا المقال من هذه الأساليب الهجائية التي لا تليق بالعلماء وبالأدباء فضلاً عن الجهال أو العوام ذكرها.

وقال في وصف الريح الشمال:

وشــمــألٍ بــاردة النســيــمِ
تشفي حزاراتِ القلوبِ الـهيمِ
إذا غدتْ في الشــارقِ الـمُغيم
ألـوت عن المهمـومِ بالهمومِ
ونفَّستــــه نـفسَ الـمـهـمـوم
مشَّاءة فـي اللـيـل بالنـميمِ
بـين نشيـرِ الروضِ والخيشـوم
كأنـهـا مـن جـنَّـةِ النعـيـمِ

وابن الرومي تصدق عليه كلمة شاعر يحسُّ بالحياة وبحياته التي مرَّ بها ومرَّت به فهو يصور لك الطبيعة وحتى الجو ببرودته وسخونته فنقف معه في لوحة فنية يرسم فيها الريح إذا هبت من جهة الشمال فهي ريح عذبة باردة وكيف إذا مرت بذلك الليل تمرُّ

في جوٍّ سحريٍّ تنقل فيه الأحاديث ولعله يشير إلى الرسائل الشوقية الغرامية التي ترسل عن طريق العيون للعيون أو القلوب للقلوب وتحمل الأعطار عندما تمرُّ بين الرياض والورود وهكذا الشاعر الحساس الذي يتفاعل مع نصوص الحياة ويعيش على مسرحها يتأثر لأحداثها وأفراحها وأتراحها، وهذا التأثر يكون شعراً عندما يلامس العواطف النفسية فتستحيل لحناً باكياً أو غنائياً يهزج بأسرار الجمال.

وقال في السلو:

سلوتُ الرضاعَ والشبابَ كليهما
فكيف تُراني ساليا ما سواهما
وما أحدثَ العصران شيئاً نكرتُهُ
ما الواهبان الساليان هما هما
رأيتُ احتساب الأمر قبل وقوعهِ
حمى مُقلتي أن يطولَ بُكاهما

ونقف مع ابن الرومي في مشهد تصويري لسرٍّ من أسرار النفس أو بالأحرى من انفعالاتها التأثرية نفثة من نفثات الشجى التي يخرج المرء عن السمت العقلي فابن الرومي يتحدث عن حياة

قد يسلاها المرء بعد أيام من مرورها عليه، فهو سلا الرضا عليه السلام مع الشباب الذي هو ربيع العمر فكيف تراه بعد سلوانه لهذين الحبيبين إنه سوف يسلو وينسى كل شيء في حياته ويعلل ذلك بأحداث وقعت له في عصره فهذه الأحداث في رؤيته هي التي أنسته، ولعل الأحداث التي طغت على ابن الرومي وأنسته ماضيه تطيره وعقده النفسية تصور له خيالات وأفكاراً فيسكبها في تلك الحروف، ويعلل هذا السلو بأن توقيه ومحاذرته ووزن حسابه للأحداث قبل وقوعها هو يحمي عينه من البكاء وهذا البيت الأخير فيه خطأ حيث إن هذه الصيغة لا تستقيم وزناً ولا معنى وهو يريد أن يحمي عينه عن البكاء لا من البكاء والأصح أن نقرأ البيت هكذا:

رأيتُ احتساب الأمر قبل وقوعهِ

حمى مُقلتي أن لا يطولَ بُكاهما

هكذا يستقيم المعنى والوزن ولعل الخلل جاء مطبعياً أو من نساخ الديوان.

وقال في الشهيد:

كسته القنا حُلَّة من دم

فأضحت لدى اللّهِ من أُرجوانِ

حَـذَتْـهُ مـعـانقـةُ الذارعـيـ

ـن معانقةَ القَاصـرات الحسانِ

ونقف مع ابن الرومي في مشهد مصبوغ بالـدم.. الـدم النـاطق الذي يبني الرفعة والعزة، دم الشهيد فهو يصفه في صورة مكسية بالدَّمّ فكأنه زهرة من أرجوان ويعانق الدروع كما يعانق الحسان وهذا المعنى كثيراً ما كررته الشعراء وتغنت به، فابن الرومي لم يأتِ بجديد.

وقبل أن أختتم هذا الحرف الـذي تحـدثت فيه وأذعته عن ابـن الرومي أحب أن أشير إلى ظاهرة نفسية لازمت ابن الرومي عقداً نفسية طول حياته، والعقدة التي طغت على نفسه وشلَّت حركته هي التطير فهو دائما متطيرٌ مضطرب النفس متشائم إلى أبعد الحدود قد يلبس بيته أياماً وأيام بعد أن يلبس حلته للخروج فيقف ليفتح بوابة بيته للخروج منها فيشاهد من الثقوب شخصاً أعرج أو به عاهة فيتطير ويتشاءم، فيعود لمقره وينزع لباسه ويبقى لابساً بيته، والتاريخ أعطى عن تطيره لمحة ولكنه لم يفسر هذه الظاهرة التي انعكست في شعره الهجائي الذي أقذع فيه وأفحش، وأنا أعلل هذا الأسلوب الهجائي الذي جاء على هذا المستوى الواطئ الذي لا يليق بالشعراء والأدباء والمثقفين فضلاً عن الجهال الذين لا

يعقلون ولا يفهمون، وأنا أعلل ذلك ولعلي مصيب أو مخطئ فقد جاء هذا الأسلوب من عقد نفسية تراكمت في آفاق ابن الرومي تولدَّت من تطيره وشؤمه انعكست ألواناً في هذا الجو الذي تطير فيه، إنَّ هذا الأسلوب الهجائي هو غريب على كل شاعر فكيف بابن الرومي المصور الفنان الشاعر الحساس الذي أتمرق ديوانه بهذا الأسلوب ولا يكتفي بهجاء الشخص إنما يتجاوز فيشارك لأمه وأبيه وجده وأخيه وحتى فصيلته التي تأويه، والعوامل النفسية التي تولد عنده هذا الأسلوب الهجائي لأسباب تافهة قد ينقد شاعر شعره فتثور ثأرته فيهجوه بذلك الهجاء أو يحرمه شخص من عطاء أو يقلل من عطاءه فتثور أيضاً ثأرته فيقذفه بذلك بهجاء فاحش، وللناقد رأيه كما للقراء والمثقفين رؤيتهم في ذلك.

١٤٣١/٣/٠١ هـ

٢٠١٠/ ٢/١٥ م

الفرزدق

ولد فِيّ البصرة بالعراق سنة ٢١هـ الموافق ٦٤١م، وكان أجداده من أشرف بيوت تميم، فنشأ الفرزدق مزهواً بأمجادِ قبيلتهِ، وحقَّ له أن يفخر، لأنَّ جَدَّهُ صعصعةَ عظيمُ القدرِ، ذائعُ الصِّيتِ، محيي الوئيدة في العصر الجاهليِّ، وقيل إنَّهُ فدى وابتاع ثلاثمائة وستِّين بنتًا، كلُّ واحدةٍ بناقتينِ وجملٍ، وفي ذلك يقول الفرزدق:

وَمِنَّا الَّذِي منع الوائِداتِ

وأحيا الوئِيد فلم تُوأدِ

وقد عرف بلقب الفرزدق لضخامة وجههِ وجهامتهِ، وكنِّي بأبي فراس، وقد أصبح شاعراً ذائع الصِّيت، وأحد الأركان الثَّلاثة الَّذين رفعوا الحكم الأُمويَّ ومجَّدوه.

كانت له في ميدان السِّياسة جولاتٌ، وصولاتٌ: فهو سياسيٌّ مغامر يمدح ملوك الأُمويِّين، ويهجوهم ويقول:

وما زالت الأشراف تُهجى وتمدحُ

وكانت له عقيدةٌ صلبة تشدُّه بحبٍّ أهل البيت، حيث يدلُّ على هذه العقيدة موقفهُ الخطير من الحدث السِّياسي؛ حيثُ تجشَّم فيه أخطاراً ... وقد روى التَّاريخُ هذه القصَّة الواقعيَّة.. وتِلْكَ قصَّةٌ تدلُّ على عظمة آل بيت الرَّسول الأطهار.

وللفرزدق موقفٌ سياسيٌّ خطير، عندما حجَّ هشام بن عبد الملك، وكان وليًّا للعهد حين حجِّه، وطاف بالبيت العتيق، وأراد استلام الحجر، فلم يستطع لكثرةِ النَّاسِ وازدحامِهم فنُصب له مقعدٌ، أي: كرسيٌّ، ليجلس عليه، فحاطت به الشُّرطة، وأعيان من الشَّام.

فأقبل الإمام زين العابدين - عليُّ بن الحسين بن عليٍّ بن أبي طالب، عليه وعلى آبائه وأبنائه أفضل الصَّلاة والسَّلام - فطاف بالبيت، فأخذ الجمهور ينفرجون ويفتحون له الطَّريق، لاستلام الحجر بدون جنود، هيبةً له، للطَّاعة الَّتي تغمره من خالقه، تذلُّلاً وخضوعًا له، ومن خضع لجبَّار السَّماوات والأرض، يخضع له من في الأرض، فتعجَّب أهل الشَّام! كيف ينفسح الجمهور، وينفرجون لهذا الرَّجل النَّحيف، ويستلم الحجر، بينما الحاكم الَّذي تحفُّ به ثلَّة من القادة والجنود، لم يتحصَّل على هذا المجد والعظمة ؟! فقال أحد أعيان الشَّام: مَنْ هذا الَّذي انفرج له الجمهور وانكفأ له

البشر؟ فأجاب هشام: لا أعرفه! تجاهلاً منه، **لئلَّا** يرغب فيه أهل الشَّام.

فكان الموقف السياسيُّ الجريء من الفرزدق الَّذي لم يُقدِّر للعواقبِ حسابًا لجوابه، أنا أعرفه !! فأنشد قصيدته السِّياسيَّة الَّتي فجَّرها قنبلة ذريَّة في ذلك الموقف الرَّهيب، وارتجل قصيدته الميميَّة الَّتي تعطي صورةً واقعيَّةً عن أئمة أهل البيت، وعن سيرة جدِّهم العطرة: الرَّسول الأعظم: محمَّد بن عبد الله ﷺ وتُعَرِّفُ ما لهم من مقام في الكتاب، والسُّنَّة، وعند المسلمين، فسجن هشام الفرزدقَ، بين مكَّة والمدينة بعد أن فجَّر قصيدته بارودًا، بصوتٍ يملأ ذلك الفضاء ويهزُّه هزًّا عنيفًا، فلم يرهبه هذا السِّجن، ولم يُخِفْهُ سلطانهُ، فهجاهُ قائلاً:

أتسجنني بين المدينةِ والَّتي
إليهاَ قلُوبُ النَّاسِ يهوي مُنِيبُهَا
يقلِّبُ رأسًا لَمْ يَكنْ رأسَ سيِّد
وعيناً لهُ حولاء بادٍ عيوبُها

فعندما بلغ هشامًا هذا الهجاء، أمر بإطلاق سراحه، كما أرسل له الإمام زين العابدين هديَّة فأرجعها وقال: إنَّما مدحتك

لوجه الله لا للمال، فأعادها عليه الإمام، وقال: نحن أُناسٌ لا نرجعُ في هديَّتنا، إذا أهديناها.

سبق لي أن كتبت عن الشاعر الكبير الفرزدق في كتابي الشعر ودوره في الحياة في عصر النور المجلد الأول ص ١٣٥ من الجزء الأول وعندما قرأت ديوانه في هذه الأيام أحببتُ أن أوسع هذه الحلقة وأنقلها من كتابي الذي نشرته وأذعته ولا ضير في ذلك لأن المؤلف قد ينقل من جيبه الأيمن إلى جيبه الأيسر، والذي أحبُّ أن أضيفه ههنا أو ألحقه بالأحرف السابقة التي كتبتها عن الفرزدق هو ما جد لي من قراءة في ديوانه المطبوع بدار الكتب العلميَّة (بيروت ـ لبنان) الطبعة الأولى ١٩٨٧م. حيث قرأته من ألفه إلى يائه وأصوره في نظرة عامة تلخيصية عن ما بين دفتيه فهو يتألف من مدح وهجاء ورثاء، وقد يتخلله بعض القطع الغزلية وهي على قلة وندرة، والفرزدق كان أحد الأركان الثلاثة الذين رسا عليهم قواعد الملك الأُموي أو بالأحرى المرواني (الفرزدق جرير والأخطل) فكان بينهم سباق إلى أبعد الحدود في ترسيخ هذا الملك العضوض كما وصفه الرسول الأعظم ﷺ وهو الصادق الأمين، ولم يدر في مخيلتي أنّ شاعراً كمثل الفرزدق العملاق في عصره أن يمدح الحجاج ولم تقف هذه الظاهرة التاريخية من

الفرزدق حتى رثاه بعد موته ولكنَّ الدَّهر لا غرابة فيه فهو يريك العجائب والغرائب إنها السياسة التي لا ترحم قاتل الله السياسة ما دخلت في شيء إلا أفسدته وما دخل الدين في شيء إلا أصلحه، ومن يريد ذلك فليرجع إلى ديوانه فيقرأ ما أشرنا إليه من ذلك المدح والهجاء ونريد أن نعلق على بعض القصائد من شعر الفرزدق، تولدَّت من قراءتي لديوانه.

أما قصيدته التي أشرنا إليها في الحادث السياسي مع ولي عهد الملك الأُموي، فعلقنا عليها ونقلناها حرفياً في كتاب الشعر ودوره في الحياة الجزء الأول المجلد الأول ص ١٣٥، فنكتفي بالتعليق السابق.

قصيدة ألا حبذا البيت:

ألا حبّذا البيتُ الذي أنت هايبُهْ،

تزورُ بيوتاً حولهُ، وتجانِبُهْ

تُجانِبُهُ مِنْ غيرِ هجرٍ لأهلِهِ،

ولكِنّ عيناً مِنْ عدُوٍّ تُرَاقِبُهْ

أرى الدَّهر، أيّام المشيبِ أمَرُّهُ

علينا، وأيامُ الشباب أطايبُهْ

وفي الشيب لذّاتٌ وقُرّةُ أعْيُنٍ
وحيث قَبلِهِ عيشٌ تعلّلَ جاذبُهْ
إذا نازلَ الشّيبُ الشبابَ فأصلتا
بِسيفهِما، فالشَّيبُ لا بدّ غالبُهْ
فيا خيرَ مهزومٍ ويا شرَّ هازمٍ
إذا الشَّيبُ راقَتْ للشَّبابِ كتائبُهْ

وهنا نقف مع الفرزدق (أبي فراس) لنتحدث معه في هذه القطعة، أيها الشاعر أيُّ بيت أحبُّ إليك هل تقصد بذلك البيت العتيق أم تقصد بيتك أم بيت أحبابك وما هي البيوت التي حول ذلك البيت التي تزورها أوضح لنا ذلك من وراء التاريخ، وقد أفصحتَ في البيت الثاني أنك تقف من ذلك البيت مجانباً له ولا تهجره برغم العيون التي تراقبك من الأعداء فيتضح من ذلك أنه بيت الحبيبة، ويبدع الشاعر فيصف لنا أيام الشباب ربيع العمر وأطيب الأيام كما أنَّ المشيب هو أمرَّ الأيام، ويسلي نفسه بتعاليل لعل فيها سلوة للنفس فيرى في الشيب لذَّات وقرة أعين وإن كان سبق ذلك الشيب عيش علله صاحبه بالعيب، ويثب الشاعر وثبة فيجعل بين الشيب والشباب صراعاً، وأخيراً سوف

يصرع الشيب الشباب وهذه نهاية حتمية للبشر، ويرى الشاعر بعد انتهاء هذه المعركة بين الشباب والشيب أنَّ الشباب هو خير مهزوم وأن الشيب أشر هازم عندما تحسن كتائب الشيب في عين الشباب ولا أعرف متى تحسن كتائب الشيب لدى الشباب إنها كتائب مريعة تخيف كل إنسان عندما يصير على عتبة الخريف وتتراكم حوله الثلوج.

لوكان غيري تضعضع:

لا تحسَبَا أنِّي تضعضعَ جانِبي
لِفقدِ امريءٍ لو كانَ غيري تضعضعا
بَنِيَّ بِأعلامِ الجريرَةِ صُرِّعوا،
وكُلُّ امرِيءٍ يوماً سيأخُذُ مَضجَعَا
لَعمرِي لقد أبقى ليَ الدَّهرُ صَخرَةً
يُرادى بيَ الباغي ولمْ أَكُ أَضرَعا

ونقف مع الفرزدق (أبي فراس) في قطعة رثائية يؤبن بها أبنائه أو قل فلذات كبده، ونريد أن نخاطب الشاعر أنّ هذا الرثاء لم يكن رثاء عاطفياً من جفنٍ دامع وقلب ذائب في كؤوس حزينة باكية بل لم يكن هذا الرثاء يمس شغاف القلب من بعيد أو قريب إنما هو فخر

واعتزاز يظهر فيه الشاعر نخوة الجاهلية كأنّ الإسلام لم يمسح تلك النخوة وتوقعنا من الشاعر أن يكون هذا التأبين فيه أسلوب شاعريٌّ يمثل الجرح ويجسد مصاب الفراق، ولكننا وجدناه كلمات جوفاء لا تزيد على الاعتزاز بالنفس والفخر وهذا ليس برثاء، فليتأمل القارئ هذه القطعة ليشاركني في رأيي أو يخالفني.

ومن قصيدة نام الخلي وما أُغمّض ساعة:

نامَ الخليُّ، وما أُغَمَّضُ ساعةً،
أَرَقاً، وهاجَ الشَّوقُ لي أحزاني
وإذا ذَكَرْتُكَ يا ابنَ موسى أسبَلَتْ
عيني بدمعٍ دائِمِ الهمَلانِ
ما كُنتُ أبكي الهالِكينَ لِفَقدِهِمْ،
ولقد بكيتُ وعَزَّ ما أبكاني
كُثِفَتْ له شمسُ النَّهارِ فأصبَحَتْ
شمسُ النَّهارِ كأنَّها بِدُخانِ
لا حيَّ بعدَكَ يا ابنَ موسى فيهمُ
يَرْجُونَهُ لِنَوائِبِ الحَدَثانِ

وقفة أيها القارئ مع الفرزدق الشاعر العملاق لنوازن بين رثاءه أبنائه وبين رثائه محمد بن موسى بن طلحة وكان شبيب قتله في الأهواز فإن الصورة العاطفية جسدها الشاعر في هذا الرثاء بينما كان رثاؤه لأبنائه صحراوياً خالياً من العاطفة وأنا أنقل ههنا مقطعاً من رثائه في محمد بن موسى وإن كان رثاءً تقليدياً حيث أنكسفت له الشمس حتى عادت شمس ذلك النهار كأنها دخان والبيت في الديوان مكتوب هكذا (كثفت له) ولعله خطأ لأنّ الشمس لا تتكثف وإذا تكثفت كيف عادت تلك الشمس كالدخان، فالصحيح كما يظهر لي في رؤياي أن الشاعر يريد عندما مات مؤبنه انكسفت له الشمس، وهذه طريقة تقليدية من أيام الجاهلية، والشمس لا تنكسف لموت أحد، ولماذا لم يقل كما قال الشاعر:

أيا شجر الخابور ما لك مورقاً

كأنك لم تجزع علف ابن طريفِ

إنّ هذا القول لفيه لفتة رائعة واستفهام إنكاري وقع من البيان موقعاً عجيباً وإنه لسحر.

أنت والغدر أخيَان:

وأطلسَ عسَّالٍ، وما كـانَ صـاحِباً،

دعوتُ بِنـاري مَـوْهِناً فـأتـاني

فلـمَّا دنـا قلتُ: ادْنُ دُونَك، إنّني

وإيَّاكَ فـي زادي لـمشتـركـانِ

فَبِدأتُ أَسَوِّي ألـزَّادَ بـيني وبـيـنه،

على ضوءِ نـارٍ، مرَّةً، ودخـانِ

فقلتُ لـه لمَّـا تـكشَّـر ضـاحكاً،

وقائمُ سيفي مِنْ يدي بمكـانِ

تعَشَّ فـإنْ واثقتـني لا تخـونـني

تكُنْ مثْلَ مَنْ يا ذِئبُ تصطحبانِ

وأنتَ امرُؤٌ يـا ذِئـبُ، والغدرُ كُنتما

أُخَيَّـيْنِ، كـانا أُرضعـا بِلِبـانِ

وهنا نقف مع الفرزدق في تحاوره مع الذئب، وكان في هذا الحوار موفّقاً ومجيداً وترى في القصيدة أخلاقاً تفيضُ حتى على الوحوش فهو يقطِّع للذئب اللحم ويطعمه بعد أن يشويه على النار

فلندخل معه في هذا الحوار ونسمعه كيف يخاطب الذئب حيث افتتح حواره بوصفه للذئب فأعطى صورة عن الذئب فهو أطلس عسال ولكنه لم يأمن صحبته لأنَ الذئب فيه الغدر ولكنني أعلق على غدر الذئب بأن البشر أغدر من الذئب أو فيهم صورة الذئب، ويمضي الفرزدق في هذا التحاور فيطلب من الذئب القرب منه ويستلطفه بكلمات عذبة حيث سيشركك في زاده، فاستضافه فأحسن ضيافته فجعل يشوي اللحم على النار، غير أنَّ الفرزدق لتجاربه مع الوحوش كان محترزاً من الذئب فعندما ضحك الذئب وبدت أنيابه كان الفرزدق على استعداد ليحمي نفسه خشية من أن يعدو عليه ذلك الذئب وكان السيف مسلطاً في يده عندما يقتضي الموقف الدفاع عن النفس، ثم يخاطبه كأنه يخاطب ضيفاً لديه فيقول له تعشَّ ويطلب منه أن يعاهده، وأن يواثقه وأن يكونا مثل الصاحبين، ثم يعطيه صورة عن جنس الذئاب فإنّ الذئب والغدر أخوان كأنهما رضعا من لبان واحد وهذا وصف دقيق وصورة متحركة.

إنَّ الفرزدق هو أحد الشعراء العمالقة الذين احتفظ بهم التاريخ وصاروا جزءاً منه أو كان التاريخ جزءاً منهم وأنه أحد الأركان الثلاثة الذين قام عليهم دعائم الملك المرواني وقد أطلقنا

على بعض قصائده التي اخترناها من قراءاتنا لديوانه وقد كتبنا عن قصيدته الشماء التي فجرها قنبلة أمام ولي العهد هشام بن عبد الملك لذلك نكتفي بهذه اللمحة ونختتم حديثنا عنه.

١٤٣١/ ٣/٠٨ هـ

٢٠١٠/ ٢/٢٢ م

ابن المعتز

(أبو العباس عبد الله بن محمد المعتز بالله)

أريد أن أتحدث عن شاعر من شعراء العصر العباسي الذي أخصب فيه الأدب والشعر برغم ما اكتنف ذلك العصر من المجون والتلاعة والجور والعسف وهو عصر يحفل بالمفارقات وحديثي اليوم عن أحد الأمراء ابن حاكم وقد رشح للحكم ليحل مكان المقتدر بالله حيث خلع المقتدر وبويع له بالحكم إلا أنها بيعة لم تتعدى سور القصر وكانت المبايعة في عام مائتين وستة وتسعين هجرياً كما ذكر في كتاب الكامل في التاريخ لابن الأثير ص ١٢١ من المجلد السادس، فكانت تلك البيعة شؤماً عليه حيث لم يتمتع بها ولا لحظة إذ لم يحالفه القضاء وفي لحظة انقلب الظرف لصالح المقتدر وعاد إلى دست الحكم وألقي القبض على الشاعر (أبي العباس عبد الله بن محمد المعتز بالله) وأُودع في السجن فقتلوه بسلاح خفي حيث عصروا خصيتيه ولفوه في زلى هكذا وجدتها في التاريخ المشار إليه وهي ترادف السجادة، وسلموه إلى أهله، ولست هنا في مقام الحديث عن حياته السياسية وما مر بها من أحداث أو مرت به وعن الظروف التي عاشها عندما كان

أبـوه حاكمـاً ونريـد هنـا أن نتعامـل معـه كـشاعر فـي نـصوصه الشعرية حيث تـرك لنـا ديوانـاً ضـخماً مـن مجلـدين كل مجلـد منـه يحمل ألواناً من الشعر فلنبدأ ببعض النـصوص لنتعامـل معهـا تعامـل النص للنص.

من باب الفخر:

ألا مـن لِعَينٍ وتسـكـابِهـا

تشكّى القـذَى وبُكـاها بهـا

تمنَّتْ شُريـرَ عـلى نـأيهـا

وقـد ساءَهـا الدَّهرُ حتى بهـا

وأمسَتْ ببغـدادَ محجـوبـةً

تُـريدُ الأُسـودَ لِطُلاَّبِـهـا

وكـان الشاعر ابـن المعتـز بـرغم عيشته فـي القـصور ولديـه الجواري الكثر يختار منهن ما يشاء إلا أنه ولِعَ بشريرة فكانت له قصائد يصور حبها في قلبه اسمعه يتحدث عن غرامه وعن هيامه فإنّ عينه تسكب الدموع وتشكو القذى وتبكي على فراقها، فعينه تتمنى أن ترى شريرة ولكنّ الدهر أبعدها عنه ولا نعلم كيف اختفت عنه، ويراها أنها محجوبة وهي ببغداد - إذاً فهي

قريبة منه بعيدة عنه حيث يحوطها أسود يخشى منهم الشاعر، وهذه الأبيات من قصيدة طويلة فمن أرادها فليرجع لها في الديوان. وقد عنونها في باب الفخذ كما قال صاحب الديوان وهي بعيدة عن هذا الموضوع إنما هي من شعر الغزل

وقال:

زعمتَ بأني يا مُبغَّضُ مُبْغِضٌ
عليّاً، فما فخري إذاً في المحافلِ

أآكلُ من لحمي وآشربُ من دمي
كذبتَ لحاكَ اللّهُ يا شرَّ واغلِ

عليٌّ وعبَّاسٌ يدانِ كلاهما
يمينٌ سواءٌ في العُلى والفضائلِ

فهذا أبو هذا وهذاكمُ ابنُ ذا
فهل بينَ هذين اتساعٌ لداخلِ

نريد أن نتحاور مع ابن المعتز في قطعةٍ جنح فيها وخرج فيها عن الواقع الملموس حيث جعل العباس عم الرسول ﷺ في الفضل كعلي بن أبي طالب عليه السلام ونسي الأحاديث التي ندَّت من شفتي رسول الله ﷺ تنص على أفضلية الإمام وأسبقيته وجهاده

وكونه أفضل الصحابة، وهو أول الناس إسلاماً وكان أول فدائي في الإسلام وماذا أعد من فضائله والعباس لا يزال في مكة ولم يهاجر حتى أُسر، فأين الثريا من الثرى، وأين النجوم من الحصى، ولكنني لا ألوم ابن المعتز حيث إنه منحرف عن أهل البيت ولا يميل لبني عمه الذين إن كان للدولة العباسية فخر فهي تفخر بعليٍّ، ولا نريد أن نزيد على تعليق هذا النص الشعري أكثر مما علقنا عليه

من باب الغزل:

ونعود مع ابن المعتز لنتحدث عن غرامه وهيامه بشريرة وكيف يصور هذا الحب في هذه القطعة.

يقولونَ لي والبعدُ بيني وبينها
نأتْ عنكَ شِرٌّ وانطوى سببُ القُرْبِ
فقلتُ لهم والحبُّ يفضحُهُ البُكا
لئِنْ فارقَتْ عيني لقد سَكنتْ قلبي

فهو يتحدث ويصور بُعد شريرة عنه ويقول له الواشون لقد بَعُدَت عنك شريرة ولن تعود حيث انطوت عوامل القُرب، فأجابهم وقلبه يسكبه في دمعه وهو يعوض قلبه ويسليه فإن فارقته حبيبته

وحرِمَ النظر لها فإنها انتقلت من مرآه وسكنت في قلبه، وهذا تعويض للعشاق يتسلون به سلوة من لا يقدر على رد حبيبه.

قال في باب المدح والتهاني:

يـا رُبَّ إخوانٍ صحبتُـهُـمُ
لا يملـكونَ لِسَلوةٍ قـلبـا
لو تَستطيعُ نفـوسُهُمْ فقَـدَتْ
أجسادَهـا وتعـانـقتْ حُبَّا

ونريد أن نتحدث في حرفنا هذا عن شعر ابن المعتز أن نقف مع القارئ على كل أنموذج من نماذج شعر ابن المعتز، فوقفة معه وهو يمدح ويهنئ، فاسمعه يصف إخواناً أوفياء قد صحبهم، فهم لا يستطيعون أن يضمدوا جراحه ويسلونه عن كل مأساة أو مصيبة، ولو استطاعوا لنزعوا أجسادهم وتعانقوا أرواحاً تمتزج بعضها ببعض حباً في كؤوس شفافة روحانية تموج بالود والإخلاص.

ومن قصيدة طويلة يمدح فيها الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام ويهجو الطالبيين. قال:

رَثيـتُ الحجيجَ فقـالَ العُـدا
ةُ سَـبَّ عـليّـاً وبيـتَ النـبيّ

أآكُلُ لحمي وأحسو دَمي

فيا قومِ للعجَبِ الأعجبِ

عليّ يظنَ بي بُغضهُ

فهلاّ سِوى الكفرِ ظنّوهُ بي

إذا لا سَقتني غَداً كفُّهُ

من الحوضِ والمشرَبِ الأعذبِ

وقبل أن ندخل إلى النص وننقل بعضاً منه نخاطب ابن المعتز ونهمس في أذنه من وراء التاريخ ونقف معه لنتحدث فنقول له كيف في قصيدتك السابقة التي هي في باب الفخر ساويت الإمام علياً بعمه العباس وعدت في هذه القصيدة التي نقلنا منها فمدحته وأعطيته ما فضلّه الله ورسوله واعترفت له بجهاده وبفدائه الذي لم يتحدث التاريخ عن مواقف كمواقفه في الإسلام ومع نبي الرحمة حتى آخر لحظة فإنه ولد في كعبة الله واستشهد في مسجد الله وبين الشهادتين جهاد ونضال طويل في سبيل الله واعترفت له بحقيقة هي ميزة له في الآخرة دون الآخرين إذ هو الساقي على الحوض إلى جنب نبي الرحمة وهذه الميزة لم يحظَ بها أحد من الصحابة غير الرسول والإمام، وقد اعترفت بذلك برغم ما تكنه

مـن حقـد وحـسد لأهـل بيتـه فقـد جعلـت مدحـه طريقـاً لهجائـك الطالبيين ولكنك اعترفت بفضائله والفضل ما شهدت بـه الأعداء ولم أتجنى على ابن المعتز لأن التاريخ نسب إليـه بغض علي وأهـل بيته وننقل النص من تاريخ الكامل لابن الأثيـر ص ١٢٢ (ومنهـا أن ابن حمدان على شدة تشيعه وميلـه إلـى علـي عليه السلام وأهـل بيتـه ويسعى في البيعة لابن المعتز على انحرافه عن علي وغلوّه والنصب إلى غير ذلك).

من باب العتاب:

قال:

غضبانُ من غيرِ غَضَبْ
إنْ هَبّتِ الريحُ عَتَبْ
وليس جُرمي عندهُ
إلاّ اتّباعي ما أُحِبْ
إنْ كانَ هذا هكذا
لَزِمتُ بَيتي وكُتُبْ

ونقف مع ابن المعتز في صورة لـه عتابية حيث صور الذين يغضبون للا شيء فهو يغضب بغير عامل للغضب ولو هبّت الريح

فأثارت في وجهه التراب نسبها لصديقه وعتب عليه، وليس لصديقه جرم يؤخذ عليه إلا أنه يسير على ما يهوى ويحبه فهذا عند صديقه جرم لا يغتفر، والشاعر جعل حلاً للذين يغضبون بلا سبب أن يسكنوا في بيوتهم ويخلدوا للكتب والراحة، ونعم الصديق الكتاب وفي المثل الوحدة ولا قرين السوء.

من باب الطرد:

ونقف مع الشاعر ابن المعتز في صور حلّق فيها الوصفً حيث كانت ريشته الشعرية ترسم كل ما تقع عليه عيناه، فهي ترسم تلك المناظر بصور متحركة كأنك تشاهد ذلك الوصف وهو يتحرك في صورته الواقعية أمام عينيك وسنختار له من تلك الصور بعض القطع وحسب مرئياتي هي أفضل شعره وأحسنها فقال:

لي بُكاءٌ وللسحابِ بكاءُ

فدموعي هوىً وذاك هواءُ

نحنُ في الحالتينِ شَتى وفيما

قد بدا للعيونِ منَّا سواءُ

يا جفونَ السحاب دمعُكِ يفنى

عن قليل وما لدمعي فناءُ

أنـا أبـكي طَـوعاً وتبـكيـنَ كـرهاً

ودمــعـي دمٌ ودمــعُكِ مـاءُ

بك يحيـا العبـادُ من بلـلِ الـ

ـقطرِ ويحيا بمُقلتيَّ الثَّـراءُ

ومـن صـور الوصـف: هـذه الـصورة التي يقـارن فيهـا بـين السحاب التي ترسل المطر وجفونـه التي ترسل الدمع ويجعل فارقاً بينهما فالسحاب يرسل الماء أما عينه فترسل الهوى أي الحب والغرام لحبيبته فإشارات العيون هي إشارات تقضي الحوائج وترسم خلجات النفوس وترسل الرسائل الغرامية في إشارات رمزية مختصرة أسرع من الضوء، والمطر يحيي البلاد، أما هذا الدمع فيحيي الثرى أي الأرض التي يعيش بها ذلك العاشق ويضرب فارقاً دقيقاً بين دموع عينه ومطر السحاب، فمطر السحاب يفنى ولكنّ دموع القلوب لا تفنى وسوف تخلد في الحياة حتى يشاء اللّٰه.

ومن الصور الوصفية أيضاً قال:

لَثَمـتْ ثـراها الشمسُ لمَّ علَّها

جفنُ السـحاب بأدمـعِ الأنواءِ

فكأنما ذاك الثَّرى من سُندسٍ

وكأنما تلكَ الرُّبى من ماءِ

اسمعه يا قارئي يصف الطبيعة في صورة بديعة متحركة حيث جعل للشمس ثغراً تلثم الثرى فهي استعارة لأشعتها فيها نكتة بيانية عندما علَّ السحاب بالأمطار فكان منظراً بهيجاً رائعاً، فبدا الثرى كأنه حرير ناعم وسالت الربا كأنك أمام نهر متدفق من ماء فتشاهد منظراً خلاباً يبهج العيون.

وقال في أيلول:

أحرقَنا أيلولُ في نارهِ

فرحمةُ اللهِ على آبِ

ما قرَّ لي في ليلتي مضجعٌ

كأنني في كفِّ طَبطَابِ

ونقف مع ابن المعتز وهو يصف الصيف الملتهب في شهر أيلول حيث فتح عليه أبواباً من الحر أو قل من النار حتى طلب من ربه الترحم على شهر آب على أن آب هو من شهور الصيف الذي تنضج فيه الأكباد، وبرغم النعمة التي يتقلب فيها بصفته من الأسرة الحاكمة التي يقطر النعيم من أكفها وتعيش في تلك

القصور الشامخة والوسائل الترفيهية لم يقر له في ذلك الشهر مضجع فكأنه في كف طير يحوم به في غير استقرار، فكيف بعيشة الفقير الذي يعيش في الكوخ فهل تحسس ابن المعتز عيشة ذلك الفقير فانحدر من أفقه العاجي ليساوي ذلك البائس المسكين ولو بدرهم من الدراهم ليخفف ويلات وهج الحرِّ؟ لا أظن ذلك إنما هو شعر يتفكه به ابن المعتز.

وقال في الشمس على الماء

غديرٌ يُرجرِجُ أمواجَهُ

هُبوبُ الرياحِ ومَرُّ الصَّبا

إذا الشمسُ من فوقه أشرَقتْ

توهَّمتُهُ جوشناً مُذهَبا

ونقف مع ابن المعتز وهو يصف الشمس عندما تلقي أشعتها على أمواج الغدير وتموّج المياه تلك الأشعة فإنّ ذلك الغدير عندما تهب عليه الصّبا فتحرك أمواجه فكأنه رجراج أو قطع من البلور، وإذا أشرقت الشمس وألقت أشعتها الذهبية على تلك الأمواج فكأنه قطعة من عسجد.

وقال يصف النارنج:

كأنَّما النارنجُ لمَّا بدَتْ

صُفرتُه في حُمرةٍ كاللهيبْ

وجنةُ معشوقٍ رأى عاشقاً

فاصفرَّ ثم احمرَّ خوفَ الرقيب

ونقف معه في صورة يصف فيها النارنج، وقد أبدع فيها أيّما إبداع فعندما تقع عينك على النارنج تتصور صفرته في حمرته كلهيب، وشبهه كوجنة معشوق أحمرت تلك الوجنة ثم اصفرَّت خوفاً من الرقيب الذي يراقبها ومعشوقها فأبدع في تصويره وتمثيله.

وقال يصف الليمون:

يا حبَّذا ليمونةٌ

تُحدِثُ للنفسِ الطَّرَبْ

كأنها كافورةٌ

لها غشاءٌ من ذهبْ

ونقف مع ابن المعتز في صورة وصفية يصف فيها الليمون الذي لا نستغني عنه في حياتنا فهو يخفف من وهج الحر عندما

نستسيغه عصيراً في تلك الكؤوس الشفافة ونتذوق تلك اللذة، فابن المعتز يشاركنا في هذه اللذة ويزيد فيصف المنظر فيا حبّذا تلك الليمونة التي يقع عليها النظر فتثير في النفس السرور والطرب مضافاً إلى لذة الذوق، فهي تشبه الكافورة المغلفة بالعسجد.

وقال يصف الورد:

أهلاً بزائرٍ عامٍ مرَّةً أبداً

لو كان من بَشَرٍ قد كان عطَّارا

كأنَّما صَبَغتهُ وَجنتَا خَجِلٍ

قد حلَّ عَقْدَ سراويلٍ وأزرارا

فلو رآه حَبيسٌ فوقَ صَومعةٍ

لقال في مثل هذا فادخلوا النارا

ونقف معه في صورة يصف فيها الورد الذي هو متعة الإنسان وهدية الأحباب إلى أحبابهم، والعاشق إلى معشوقته، فهو يرحب به لأنه لا يمر إلا مرة واحدة في العام ولو كان الورد إنساناً لكان عطّاراً وهذه المقارنة المزدوجة لأنّ الورد عطر والذي يبيع العطر هو ندٌّ فهذه المقارنة مزدوجة بين عطرين، فهو يشبه وجنتي خجل

عندما تحل أزراره لستُ أذكره، ولو نظر ذلك الورد ناسك في صومعته لقال في حب هذا الورد فلندخل النار.

وقال في وصف قبر:

مررتُ بقبرٍ زاهرٍ وسطَ روضةٍ
عليه من الأنوار مثلُ الشقائقِ
فقلتُ لمِنْ هذا فقال ليَ الثَّرى
ترحَّمْ عليه إنَّه قبرُ عاشقِ

ونتحدث مع ابن المعتز في صورة وصفية لقبر شاهده فوصفه حيث إنه مر على روضة وكان في وسطها قبر فلما سأل عنه قيل له ترَّحم على صاحب هذا القبر لأنه قبر عاشق ولعله يقصد أنّ هذا العاشق مات محروماً من الوصل فهو ظامئ الحس والقلب لم يُروَّى من معين حبِّه والله أعلم بالحقيقة.

من باب المراثي والتعازي

قال يرثي الإمام الحسين بن علي بن أبي طالب عليه السلام:

كم قتيلٍ لك بالطَّفِّ غالي
أرخصتْهُ غفلاتُ العوالي

غادرتْهُ الحربُ يومَ تولّى

ميِّتَ الناصرِ حيَّ المعالي

ساكنَ اللحظةِ يسخو بنفسٍ

صانَها السلمُ ليومِ القتالِ

صادياً يحمي مواردَ ماءٍ

مُنتضى الصَّفوةِ عذبَ الزُّلالِ

ونريد أن نقف مع ابن المعتز في قصيدة يرثي بها الإمام الحسين سيد الشهداء وأبا الشهداء حيث ذكر فيها ظلامته التي اقترفتها بنو أُمية، ولكنني أعلل هذا الموقف بأنه موقف سياسي لأن الدولة العباسية قامت باسم القائم من أهل البيت ويعدون الأمويين أعداء لهم لأن الدولة قامت على أنقاض الدولة الأُموية فلعل هذه القصيدة تنبع من هذا الموقف والله أعلم بالحقيقة، فلنقف معه ونحلل بعض أبياتها التي نريد أن نثبتها في هذا الحديث، فهو يخاطب نفسه حيث جرد منها شخصاً، وهذا التجريد له في البلاغة مقام كبير، فهو يقول كم قتيل له في الطف من الذين يعزون عليه قطعتهم أطراف الرماح، فالأمويون توّحدوا بالإمام الحسين لأنه لا ناصر له إلا قلة ولم يمهلوه حتى تتجمع له الأنصار

بل عاجلوه وقتلوه صادئاً عطشان إلى جنب الفرات.

من باب الزهد

ونقف مع ابن المعتز لنتحاور معه في مقطع تحدث فيه عن الزهد فهل هذه المقولة يطبقها على نفسه ويعيشها واقعياً كلا بل يعيش في ترف النعيم وفي القصور في حضن الجاريات وبين الكأس والعود وعندما جاءه الحكم لم يتردد لحظة وأراد أن يجلس في الحكم على جثة ابن عمه المقتدر بالله ولكن لم يواتيه الزمان فلم يتعدى سور قصره حيث سجن وقتل وبرغم هذا سنتحدث معه في هذه الأبيات الوعظية، فهو يعظنا بالسفر الذي تغرب فيه شمس كل شخص فلا يعود ويتأوه على الأحباب الذين سبقونا إلى هذا السفر الطويل، ويصف ذلك القبر الذي لم يمهَد لتلك الضجعة بالأعمال الصالحة إنما نفرشه بأعمالنا القبيحة السيئة.

فقال:

آهِ من سفرةٍ بغير إيابِ
آهِ من حسرةٍ على الأحبابِ
آه من مَضجَعي فريداً وحيداً
فوق فرشٍ من الحصى والتُرابِ

آه مـن سـكـرةٍ بغيـر شـرابِ

آهِ مـن وثـبـةٍ بـغـيـرِ ركـابِ

ويعجبني من ابن المعتز هذا التعبير الذي صور فيه أغلى شيء في الحياة، فقد الأحباب ؛ وفقد الشباب فلو سكب عليهما الدماء وذهبت عيناه حسرة عليهما لم يتعوض بدلهما بشيء في هذه الدنيا الفانية، فهذا الفقد بعينه لا يصل بمقدار المعشار بحق فقد الشباب والأحباب.

من باب الملحقات قال:

نضَتْ عنها القميص لِصبٍّ ماءٍ

فورَّدَ وجـهـهـا فـرطُ الحيـاءِ

وقـابـلـتِ الـهـواءَ وقـد تـعرَّتْ

بـمـعـتـدلٍ أرَقَّ مـن الهـواءِ

ومـدَّتْ راحـةً كـالـمـاء منـهـا

إلى مـاءٍ مُعدٍّ في إنـاءِ

فلمّـا أن قـضتْ وطـراً وهمَّتْ

على عجلٍ إلى أخـذِ الرداءِ

رأت شخصَ الرقيبِ علـى التـداني

فأسبـلتِ الظلامَ على الضيـاءِ

وغـابَ الصبحُ منها تحتَ ليـلٍ

وظلَّ الماءُ يقطُـرُ فوق مـاءِ

فسبحـانَ الإلـهِ وقـد براهـا

كأحسـنِ مـا تكـونُ من النســاءِ

ونقـف مـع ابـن المعتـز لنـشاهد منظـراً مـن منـاظر الجمـال واللفتات التي تتعرض صدفة أو عمداً للأحباء أو للعاشـقين الـوالهين فهـو يـصف فتـاة فـي أجمـل صـورة مـن القـوام ومـن الـشباب تعـرت لتـستحم، فعنـدما تعـرّت غمرتهـا حمـرة مـن الحيـاء وقابلـت الهـواء فكـان قوامهـا أرق مـن النـسيم، ومـدت تلـك اليـد البيـضّاء البـضا لتستحم بها فتأخذ الماء لتغتسل فكانت تلك الأنامل واليـد أرق مـن الماء، وبعد ما قضت وطرها من الاستحمام وأسرعت لتلتف بردائها فوجئت بشخص قريب يراقبها ويحـدق فـي ذلـك الجمـال الـذي ظهـر بعريه علـى الطبيعـة كمـا يوم ولـدتها أمها فلـم تحـين لهـا الفرصـة لتلتف بالرداء ولعلها في عرفنا اليوم المنشفة التـي نجفـف بهـا المـاء عنـدما ننتهـي مـن الاسـتحمام، ولـكنهـا أسبلت شـعرها الـذي هـو

كالليل على جسمها البض الذي ينير كالصباح فغطى الظلام الصباح فكانت أجمل إغراء تثير العواطف وتشب نار الشهوة،فهي قصة بديعة ولكنني قرأتها في إعلام الناس بما جرى بين البرامكة وبني العباس ينسبها لأبي نواس في قصة جرت للرشيد مع إحدى جواريه وقرأت في شرح ديوان ابن المعتز أنّ ابن منظور في كتابه ينسبها لأبي نواس إلا أنها لم تثبت في ديوانه واللّه أعلم بالحقيقة.

وقال:

منىً إن تكُنْ حقاً تكُنْ أحسنَ المُنى

وإلاَّ فقد عِشنا بها زمناً رغدا

أمانيُّ من سُعدى حسانٌ كأنما

سقتكَ بها سُعدى على ظمأٍ بَرْدا

ونعود لنتحاور مع ابن المعتز في هذه المقولة وهي مقولة لها هدف سامي ومعنىً بعيد وكنت حفظت منها أول بيت من أستاذي العلامة الشيخ عبد الحميد الخنيزي (الخطي) ولم أعرف قائله حتى وقفت عليه فعرفت قائله ابن المعتز، وهو يصف تلك الأماني ويعبر عنها بتعبير يثلج النفوس ويهدئ من روعتها ويسير فيها الطموح،

إنها منىً إن كانت تلك الأمنية تحققت ولامست الواقع فهي أحسن المنى وهذا الذي نصبو إليه قد لمسناه واقعياً، وإن لم تتحقق فإننا نعيش بتلك الأماني ونعلل النفس بها فنقضي ذلك العيش برغد وسرور، ويضرب لتلك الأمنية مثلاً كمثل العاشق يعيش وهو يعلل نفسه من أماني لقياه بحبيبته سعدى فيراها أحسن ما يُرَوِّي بها ظمأ قلبه الصديان وإن لم تلامس الواقع.

وقال:

وحياةِ مَنْ جَرحَ الفؤادَ بطرفهِ
لأحبِّرنَّ قصائدي في وصفهِ
قمرٌ به قمرُ السماءِ مُتيَّمٌ
كالغُصنِ يُعجَبُ نصفُهُ من نصفهِ
إني عَجِبتُ لخَصرهِ من ضعفهِ
ماذا تحمَّلَ من ثقالةِ ردفِهِ
هذا وما أدري بأيَّةِ فِتنةٍ
جَرَحَ الفؤادَ بلطفه أم ظَرفهِ
أم بالدلالِ أمِ الجمالِ أمِ الصِّبا
من وجههِ أم بالقفا من خلفِهِ

نريد أن نسهر الليلة مع ابن المعتز في ليلة شعرية نتحاور معه في قطعة غزلية يصف بها حبيبه الذي جرح فؤاده وأي جرح، إنه جرح الحب الذي لا يلتئم إلا بالوصل أو الموت إذا كان الحب نابعاً من فؤادين صادقين اشتركا في ذلك الحب فابن المعتز يقسم أنه ليحبر القصائد أي يكتبها في صفات جماله ويتغزل في مقاطع جسمه فنواصل الحديث مع هذه القطعة، فيشبهه بقمر ولكنّ قمر السماء يعشقه وهنا يضيف ابن المعتز نكتة بيانية أنّ النصف الثاني هو عاشق ومعجب بالنصف الآخر أي قمر السماء يعشق قمر الأرض وهو المحبوب وهذه نكتة من النكت البلاغية البيانية، ويضيف ابن المعتز إلى وصف حبيبه ضعف خصرهِ وإنه يعجز ذلك الضعيف عن حمل عجيزته وهذا الوصف لا أستسيغه، فإنه وصف تقليدي أكل الدهر عليه وشرب وعصرنا لحديث يحب رشاقة المرأة لا ضخامتها، وابن المعتز حائر كيف جرحه حبيبه هل هذا الجرح الذي أصابه من جمال حبيبه أو من لطف رقته، ويزيد حيرته للجرح الذي أصابه فما يدري؟ هل هو من الدل أو من الجمال أو من حسن وجهه أو من قفاه وكذلك لا أستسيغ هذا البيت حيث أضاف له القفاء والمرء لا يعشق من ورائه إنما تعشق الوجوه وتنكح الوجوه والمبالغة في هذه الصورة ساذجة سخيفة لأنّ الجمال أو الرقة لا تجرح إنما تفتك وتجرح العيون، والجمال المتكامل الذي

يهزُّ القلوب، وتشعر بهزة كهربائية يمتد منها تيار يسري في الجسم كله من المحبوب إلى حبيبه

قال في اللوز:

ومُهدٍ إلينا لَوزةً قد تضمَّنَتْ

لمُبصرها قلبينِ فيها تلاصقا

كأنَّهما حِبَّانِ فازا بِخلوةٍ

على رقبةٍ في مجلسٍ فتعانقا

ونتحدث هنا عن صورة وصفية لابن المعتز وصف فيها اللوز فصوره في صورة جميلة دقيقة، حينما أبصر اللوزة التي أهديت له أبصر فيها قلبين فكأنهما حبيبان جثيا على ركبة في خلوة مجلس حب كحبيبين تعانقا والتفَّا في جسم واحد.

وقال:

الشيبُ أَعظمُ ذنباً عندَ غانيةٍ

من ابنِ ملجمَ عند الفاطمينا

ونقف مع ابن المعتز لنخاطبه من وراء جدار التاريخ ونهمس له همسات فيها تنبيه له إن كان يفيد التنبيه فإنه يشبه الشيب عند الغانيات كابن ملجم الخارجي عند الفاطميين قاتل أمير المؤمنين

علي بن أبي طالب عليه السلام، ولا أعرف لماذا خصَّه بالفاطميين ولم يجعله مجرماً عند الله وعند رسوله وعند المسلمين أنسي الحديث الذي قاله الرسول صلى الله عليه وآله في حق الإمام علي عليه السلام: (من سبه فقد سبني) فكيف بمن قتله وسفك دمه في شهر الصيام في مسجد من مساجد الله في ليلة القدر ونسيَ ما قاله الرسول صلى الله عليه وآله: (إنَّ عبد الرحمن بن ملجم أشقى من عاقر الناقة) ولكنّ ابن المعتز حسبما أشار له ابن الأثير في الكامل في التاريخ ص ١٢٢ من المجلد السادس أنه منحرف عن أهل البيت وقد لمست مقولة ابن الأثير في شعر ابن المعتز يتخللها بين قصائده وتنساب بين حروفها.

وقبل أن أختتم حديثي عن ابن المعتز الذي قصرته على نصوصه الشعرية ولم أمر بحياته وإن أشرت لها إشارة من شاطئ إلى شاطئ آخر ولكنني أحب إلى أن أشير إلى مقولة سمعتها من بعض الأدباء ولم أقف عليها عندما قرأت حياة ابن الرومي في التاريخ وحياة ابن المعتز وهي عندما سئل ابن الرومي لم لا تكتب شعراً وصفياً في معلقات أثرية كابن المعتز أجابهم ابن الرومي بهذه المقولة إنه ابن خليفة وقد زللت له أواني الذهب والفضة وكل ما يحتاجه بينما أنا يعوزني القرص وقد قرأت لابن المعتز في

ديوانه نقداً لابن الرومي في قطعة شعرية يصف بها الورد والنرجس ويفضل النرجس على الورد هذا الذي اطلعت عليه، وهـذا ملخص ما سمعته مـن بعض الأدباء لا بالنص، وإنما حكيت معناه، وهـذا ما أردت أن أحدثكم به عن ابن المعتز والله الموفق لكل خير.

١٤٣١/٣/١٤ هـ

٢٠١٠/٢/٢٨ م

الشريف المرتضى

٣٥٥ ــ ٤٣٦هـ

أنا أمام هرم من الفكر ومصباح من العلم والأدب لقِّب بعلم الهدى، وكان في عصره في القرن الرابع من الهجرة مدرسة فكرية يستظل تحت قبتها رجال العلم والفكر والأدب ينهلون من نميرها العذب، فهو قمة من القمم الفكرية التي انحنى لها التاريخ فجاء قبسة من قبسات أفكارها، فمدرسته كانت مناراً للأجيال ولا تزال حتى يومنا هذا فمؤلفاته روافدها تسقي الفكر والعقول وهي لا تعد ولا تحصر، برغم ما جنى عليها الزمن فأضاع منها الكثير وهذه الظاهرة يمتاز بها المسلمون أو العرب الشرقيون، بعكس ما يحدثنا عنه الغربيون أو اليونانيون بصورة خاصة عن العناية بهذا التراث وهذا الفكر لا أدري لماذا أعلل هذه الظاهرة التاريخية ظاهرة الضياع التي وسمنا بها، وبرغم هذا فقد ترك ثروة فكرية علمية ولا سيما كتابه العقدي الشافي في الإمامة الذي رد فيه على القاضي عبد الجبار ففيه تحاور أدبي ومنطق عقلاني لا يخرج عن سمت الآداب إنما يرد الحجة بالحجة ببرهان منطقي، وله في الفقه وفي الأصول كتب ابتكر فيها نظريات ولعله أول

مفكر أشار إلى نبي الرحمة صلى الله عليه وآله أنه بعد البعثة لم يتصف بالأمية بل كان غير أميٍّ لأنّ الأُمية عللها علم الهدى أنها نقص والنبي أكمل الكملاء لا تنقصه ناحية من نواحي الفكر أو الخلق فهو المجموعة الكاملة التي تصدق عليها الإنسانية الكاملة، وهو يفضل جميع خلائق الله فهذه نظرة دقيقة فمن أراد أن يطلّع عليها فليرجع لها وليرجع إلى ترجمته ليعرف أسماء تلك المؤلفات وقيمتها في الفكر الإسلامي دون الذي فقد منها، ولست هنا أريد أن أتحدث عن الشريف المرتضى كعالم ومفكر وفيلسوف وعن حياته وما مرَّ بها ومرت به وملابسات ظروفه الاجتماعية أو السياسية، وكان له دور شامخ في حياته العلمية والاجتماعية والسياسية وقد أنشأ مدرسة في بغداد يصرف عليها وعلى طلابها ونظمها تنظيماً، لا أريد أن أتحدث عنها وما فيها من فصول وترتيب فمن شاء فليرجع إلى حياة الشريف ومترجميه، إنما أريد أن أتحدث هنا عن الشريف المرتضى الشاعر لا العالِم، فهو ترك ديواناً ضخماً من الشعر جمع في ثلاث مجلدات قام بتحقيقه علماء ومفكرون من هذا العصر، فقد ترجمه الأستاذ الدكتور مصطفى جواد أحد مفكري العراق، وقدم له الأستاذ الشيخ محمد رضا الشبيبي، وحققه ورتب قوافيه وفسر ألفاظه الأستاذ رشيد الصفار (المحامي) فلنبدأ معه الحوار في نصوصه الشعرية.

قال يذكر مصرع جده الإمام الحسين عليه السلام.

ومنها:

ألا إنّ يومَ الطـفّ أدمى محـاجراً
وأدوى قـلوبـاً مـا لـهنَّ دواءُ

وإنّ مصيـبـاتِ الزمـان كثيـرةٌ
وربّ مـصـابٍ ليس فـيـه عـزاءُ

أرى طخيةً فينـا فـأيـن صبـاحُـهـا
وداءً عـلـى داءٍ فـأيـن شـفـاءُ

إننـا نفتـتح محاوراتنـا مـع العلامـة أو بـالأحرى مـع الـشاعر الـشريف المرتـضى بفاتحـة فيهـا تَيَمُنـاً وأجـر مـن الله حيـث نبـدأ برثائه جده الإمام الحسين عليه السلام ونأخذ منها بعض أبيـات، فهـو يـصف يوم الطف وصفاً عظيماً وهـو محـق فـي وصـفه فـإن يـوم الطـف قـد أسـال المحـاجر دمـاءً وأمـرض قلوبـاً لـيس لهـن دواء ولا شـفاء حتـى يخـرج القـائم مـن أهـل البيـت وهـذا البيـت يـذكرني بمقولـة تنـسب للإمام الرضا عليه السلام حيث روي عنه أنّ يوم الطف أدمـى قلوبنـا وأجـرح جفوننا وأذلنا فلعل الشريف اقتبسه من جده، ويعود الشاعر ليخفف بعـض الـويلات فيـصف مـصائب الزمـان ومـا يجـدُّ علـى المـرء مـن

أحداث وبلايا، إلا أن بعضها ليس لها عزاء ولا صبر بخطرها وعظمها، فيصور الشاعر يوم الطف بظلمة لا يعقبها صباح كما يعقب الليل الفجر، وإن مصابهم هو داء يزيده داء فهو داء على داء وليس له في الصيدليات أو عند الأطباء دواء حتى يشفى.

ومنها

وإمّا شقيتم في الزمان فإنما
نعيمى إذا لم تلبسوه شقاءُ
لحا الله قوماً لم يجازوا جميلكم
لأنَّكُمُ أحسنتمُ وأساؤا
ولا انتاشهم عند المكاره مُنهضٌ
ولا مسّهم يوم البلاءِ جزاءُ

****

ويعود فيشير إلى كرم جدِّهم نبي الرحمة حين عفا عن المشركين يوم فتح مكة ومن ضمنهم أبو سفيان وقد قال الرسول صلى الله عليه وآله من دخل بيته كان آمناً ومن دخل الحرم كان آمناً ومن دخل بيت أبي سفيان كان آمناً فأعطى أبا سفيان تقديراً خاصاً ولكنهم لم يرعوه فقتلوا سبطيه وجازوا الإحسان بالإساءة،

فالمرتضى لا يلبس النعيم ما دام أجداده عاشوا في مرٍّ واضطهاد وشقاءٍ وعذاب.

وقال في النسيب:

إذا كنتِ أزمعتِ الرحيل فإننا

سترحل منّا أنفسٌ وقلوبُ

وإن تبعدي عنّا فللعين أدمعٌ

تصوب وللقلب المشوق وجيبُ

وما لحياةٍ بعد فقدكِ لذةٌ

وليس لعيشٍ بعد بينكِ طيبُ

ومن قال إنّ البين يُسلي "عن" الهوى

جَهول بأسباب الغرامِ كذوبُ

وقفة مع الشاعر الشريف المرتضى ويسمح لي أستأذنه من وراء التاريخ أن أخاطبه بلفظة الشاعر مجرداً من ألقابه العلمية وسيتكرر هذا الخطاب وكفى بالشاعر مجداً وفخراً، وقد استثنى القرآن الشعراء الذين آمنوا فكانوا يدافعون عن الإسلام وعن العقيدة ويمدحون نبي الرحمة وآل بيته وفي طليعتهم حسان بن ثابت، كما دعا له الرسول ﷺ وقال: (لا تزال يا حسان مؤيَّداً بروح

القـدس، مـا نـصرتنا بلسانك) ، ونعـود فنخاطـب شـاعرنا الـشريف المرتضى ونتحاور معه في قصيدة غرامية أو غزليـة، فاسـتمع إليـه يخاطب حبيبته حينما تعزم على الرحيل فسترحل معها نفسه وقلبـه فيعيش جسماً لا إحساس به لأن الجسم لا يشعر إلا بالروح والقلب، ويـصور البعـد.. بعـد الأحبـة فـإنَّ العيـون تـسكب الـدمع والقلـوب تـشتعل فيهـا نـار الوجيـب، فالحيـاة لا تلـذُّ بعـد هـذا الفـراق للحبيبـة والعيش ليس بهنيءٍ ولا طيب فيه، والشريف المرتضى يردُّ علـى مـن تخيل أن بعد الحبيب يخفف من آلام محبـه ويسليه وينسيه الحبيبـة فإنه كذوب حيث لم يطابق الواقع المرير الذي يعيشه العشاق فهـم يحسون بوهج الفراق وألم الوحشة.

وقال يرثي صديقاً له ونأخذ منها ثلاثة أبيات:

أيا ذاهـباً بُقّيتُ للـحزنِ بـعـدَه

ألا إنّني حـزناً عليك كذاهبِ

توُفّيتَ دوني غير أنـك هـالكاً

توفيتَ آمـالي وغُلتَ مطالبي

فأصبحتُ فردَ الشخص لـولا تلهّفٌ

يزور بسارٍ مـن همومٍ وسـارِبِ

ونقف مع الشاعر الشريف حيث نتحاور معه في قطعة تأبينية أبّنَّ بها صديقاً له وكان فيها يذوب وفاءً ويحن لصديقه حنين الزهور لقطرات الطل في حِمارَّة القيظ، فهو يخاطبه أيها الماضي تركتني قطعة من الحزن لا تعرف الهناء وبرغم ذلك أنني سأتبعك فلابد لي من رقدة ومن الكأس الذي شربت منه سأشربها ولعله يخفف من حزن المتقدم على المتأخر، فعندما فارقه صديقه ويعرف أنه هالك إلا أنه ماتت معه كل أماله وأحلامه فهي موتى، ويصور الشاعر نفسه أنه أصبح وحيداً لا معين له إلا الله ولولا تلهف وحسرات تمرُّ عليه تزوره متخفيات وظاهرات فهي تذيقه ألماً على ألمه على صديقه.

وقال في الشيب:

صدّت أُسيماءُ عن شيبي فقلتُ لها

لا تنفري فبياضُ الشيب معهودُ

عمرُ الشباب قصيرٌ لا بقاءَ له

والعمرُ في الشيبِ يا أسماءُ ممدودُ

قالت طُرِدتَ عن اللّذاتِ قاطبةً

فقلتُ إني عن الفحشاءِ مطرودُ

ما صدّني شيبُ رأسي عن تُقىً وعُلاً

لكنني عن قذى الأخلاقِ مصدودُ

لولا بياضُ الضحى ما نيلَ مفتقَدٌ

ولم يَبِنْ مطلبٌ يبقى ومقصودُ

ما عادل الصُّبحَ ليلٌ لا ضياء به

ولا استوت في الليالي البيضُ والسُّودُ

واسمعه يتحدث يا قارئي عن الشيب في صورة وصفية تحاورية صاغها مع شخص أو قل جرَّد من نفسه شخصاً يتحاور مع فتاة فأبدع الشريف في هذا الوصف والتحاور وفي الأسلوب الشعري، فيبدأ بنفور أسيماء عنه حينما وقعت عينها على بياض رأسه غير أنه هدأ من روعها وقال لها إنَّ الشيب ليس بجديد ولا طارئ على الإنسان فهو معهود ومعروف فلا تنفري ولا تجزعي واهدئي وعودي إلى ما كنتِ عليه، ويسليها ويخفف من وحشتها ونفورها فإنّ عمر الشباب قصير لا يطول كعمر الورود ولكنّ عمر الشيب هو العمر الطويل الذي يمتدُّ فيه عمر المرء ويعيش في ظله، ولكنَّ أسماء لم تقتنع اقتناع تام فضربت على الوتر الحسّاس فقالت له لقد طردت عن اللذات لذات الشباب وما عدت تتمتع بها

فـرد عليهـا يـسليها إننـي عـن الفحـشاء مطـرود، ويـضيف الـشاعر لتهدئة أسماء أن الشيب لـم يمنعـه عـن التقـوى أو عـن طلـب المعـالي وهو في خُلُق رفيـع مـصدود عـن قـذى الأخـلاق وهـذه نعمـة مـن الله تعوضه عن الشباب. فهو يشبه بياض الشيب بالضحى ولولا الضحى لما توصلنا إلى أفكـار نـستفيدها ونـستجدُّها فـي الحيـاة ولـم نفقـد مطلوباً في هذه الدنيا ولا يستوي الصبح والليل ولا الضياء والظلام، فكان الشريف مبدعاً في قطعته وفيها زخم وتصوير يمدح صديقه أبا الخطاب:

ونعود لـشاعرنا الـشريف لنقـضي معـه سـهرة فكـريـة فنقـبس من معانيه ونتحاور معه في خمسة أبيات من قصيدة له طويلة يمـدح بها صديقه أبا الخطاب والأبيـات الخمـسة تـصور خريف المـرء ومـا يحدثه ذلك الخريف من ثلوج تتراكم مـن خطـوب الـسنين وبلاياهـا ورزاياها فتنبت ألماً وتجاعيد تخدد ذلك الوجه الجميل فاسمعه:

قـلبي رهينٌ فـي الهـوى

"إن كان قلبُك منـه يخـلو"

ولـقـد علمتُ على الهـوى

أنّ الـهـوى سُـقـمٌ وذلُّ

وتَــعـجّـبَـتْ جَــمْـلٌ لشيـ

ـب مفـارقي وتشيبُ جَمْلُ

ورأتْ بيــاضاً فـي سـوادٍ

مــا رأته هنـاك قَــبْـــلُ

كذُبـالةٍ رُفِـعَتْ عــلـى الـ

ـهضباتِ للسّــارين إذا ضلّوا

فإنّ قلبه مرهون لدى حبه وغرامه وإن كان قلب من يحبها خالياً من حبه وهذا لون من ألوان الابتلاء في الحياة، وهو يميز أن الحب في هذا اللون يزيد المحب نحافة وإذلالاً، ويفسر ذلك إنّ هذا الصدود وخلو قلب جمل حبيبته من الحب لما مر بها من الخريف الذي نشر ثلج السنين على رأسه فكان مبيَّضاً ومن هذا الابيضاض تنفر الغواني وترتاع منه ولقد صور هذا المعنى وخفف من ويلاته شاعر الإنسانية الذي يصور خلجات الإنسان بقوله:

راعتكِ رائعة البياض بمفرقي

ولو انها الأولى لراع الأفحمُ

ما أصدق هذه المقولة.

فلنعد لحديثنا مع الشريف ونكمل معه ما بدأناه، ويوضح ذلك الخريف بأنّ حبيبته جمل رأت بياضاً يتمشى في ذلك السوادَ ما رأته من قبل، وهنا يضرب الشريف مثلاً بذلك البياض دقيقاً شاعرياً فيشبه ذلك البياض بذبالة المصباح لتهدي السراة في الإدلاج فأحسن وأبدع.

وقال في الزهد:

ولازالت سهرتنا ممتدة مع الشاعر الشريف فنتحدث معه وهو يعظنا بقصيدة طويلة نأخذ من أولها مقطعاً فاسمعه:

يا ربِّ لا تجعل المنظورَ من أَجَلَي

يلقاك بالسّيءِ المكروهِ من عملي

واجعلْ مسيري إلى لقياك يوم ترى

حشرَ الأنامِ على نهجٍ من السُّبُلِ

في واضحٍ جَدَدٍ تأبى العثارَ به

رِجلي فلا هفوتي فيه ولا زللي

واعطني الأمنَ في يومٍ تكون به

قلوبُ خلقك ملقاةً على "الوجلِ"

فيفتتح قصيدته بالتضرع والخشوع لمن هو أحقُّ بالتضرع والخشوع فاطر السماوات والأرض العزيز الحكيم فيناجي ربه أن لا يعامله بالمنظور من عمله عندما يحين أجله ويلقى ربَّه أو لا يعامله بالسيئ من أعماله وأن يغفر له إنه هو الغفور الرحيم، ويتم مشهد مناجاته في التوسل والتضرع بأن يكون مسيره لربه يوم يحشر الناس فلا تنفع نفسٌ نفساً إلا من رحمها الله ومنَّ عليها بلطفه بالعفو ويكمل هذا المشهد بأن الله يوفقه وينجيه من العثرات التي هي من أخطر الذنوب يوم تنكشف كل سيئاتنا وتوضح أعمالنا بسم الله الرحمن الرحيم ﴿**يَومَئِذٍ تُعَرضُونَ لا تَخفَىٰ مِنكُم خَافِيَةٌ**﴾ سورة الحاقة الآية: ١٨.

وقال في الأدب:

ولنعد ونتحدث مع الشريف فنقضي معه سهرةً أدبية فيها متعة للفكر ونحاوره ومحاورتنا الليلية في قطعة فيها رشد للأخلاق وتهذيب النفوس فاسمعه يتحدث:

لا تطلبِ الرزق في الدنيا بمنقصةٍ
فالرزقُ بالذلِ خيرٌ منه حِرمانُ
المالُ يمضي وتبقى بعده أبداً
على الفتى منه أوساخٌ وأدرانُ

ما للفتى في الغنى من ذلةٍ عِـوَضٌ

وليس في المـال للأعـراضِ أثمانُ

في أسلوبه الإرشادي فهو يطلب من المرء ألا يسعى للرزق بذلة فهو لا ينهي عن السعي لطلب الرزق ولكنه يطلب أن يكون السعي في عز بحيث لا يبيع شرفه أو عقيدته أو وطنه، فإنّ المال الذي اكتسبه بهذه الطرق سوف يفنى ويبقى ذلك الدرن يلطخ صفحته في حياته ومماته، فالغنى للفتى ليس فيه تعويض عن تلك الذلة وليس في الأعراض أي في الشرف عِوض بعد أن يمسُّ ذلك العرِض فالشريف كان في هذه الصورة مثالياً وصور فيها صورة متحركة ترتفع عن شعر الواعظين إلى صورة الشعر الذي تكتبه الشعراء.

فيا شَعَـراتِ رأسٍ كـنّ سوداً

وحُلنَ بمـا جناه الدَّهرُ جونا

مشيبُـكِ بالسنينَ ومن همـومٍ

وليتكِ قـد تُـرِكتِ مع السنينا

كرهتُ الأربعين وقد تـدانت

فمـنْ ذا لي بـردِّ الأربعينا

ولاح بمفـرَقي قبَسٌ منـيرٌ

يـدُلُّ عـلى مقـاتليَ الـمنونا

ونعود في سهرتنا التي لم تنتهِ مع الشريف فنتحدث معه عن وصفه لشيب رأسه وخطابه لشعيرات بيضتها السنون وأثقلتها الهموم فإنّ شعرات رأسه التي كانت كالليل أصبحن من ثقل الأيام وهمومها بيضاً، وإنه يرى أنّ هذا الشيب لم يكن وليد كبر السن وإنما هو وليد الهمِّ وما تحمله من ثقل الحياة ويتمنى أنها تركت الشعيرات مع السنين بدون أن تتعاور عليها الهموم، فإنه كره الأربعين التي تجاوزها وكره ظلها الثقيل ولكنه يتمنى لو ردت عليه الأربعون التي يعتبر ظلها ثقيلاً عليه، وقد غطى عليه ظل أثقل من ظل الأربعين لذلك تمنى عودتها والمرء يحنُّ للماضي لأنه كلما أوغل به الزمن مشى به إلى طيف الغروب، وإنّ علامات الموت مشى ظلها برأسه وتضيء له طريق مقات المنون.

وقال في العتاب:

يـا مـن قُـرِنتُ بـه عـلى

رغـمي فـصرتُ لـه قرينـا

وشـريـتــه لـمـا غُــرِرْتُ

فـلـم يـكـن عِـلـقـاً ثمينـا

وظنــــنتُ أنـي غــابـنٌ

فـيـه فـكـنتُ بـــه غبينـا

لـمـا خـــبرتُك لـم أجــد

شيئاً أكـون بــه ضنيـــنا

وإذا جــعــلتــك قُـــرَّةً

للعين أسخنتَ العيــونا

ونقـف مـع الـشريف لنـصور تجربتـه فـي الأصـدقاء ومـا أقلّ الوفاء في الأصـدقاء الـذين يـدعون بالـصداقة والأخـوة وهـم بعيـدون كل البعد ويتصورون في صورة من الدجل والزيف في صورة أخـوة وصداقة، فالشريف صور هـؤلاء صـورة ناطقـة فإنـه يقـول إنّ الـزمن الذي ساقني إلى شخص جعلته برغمي قريناً لـي وغاليـت فيـه بكـل ثمنٍ، ولـكنني أبت بصفقة خاسرة ولم يكن لي علقاً ثميناً، وظننـت أن مغـالاتي فيـه وشـرائي لـه أنني محـسود بـه ومغبـون ولـكننـي خرجت من هـذه الـصفقة خاسـراً مغبونـاً، وعنـدما ابـتلاه وجربـه لـم يكن ذلك الصديق ضنيناً حتى يوفي له بالأخوة، وحينما يتخذه قرة

للعيون وملجأً يجيء بعكس ما اتخذه فيسهر العيون.

ونطوي سهرتنا مع الشريف وننهي حديثنا معه وقد اختصرنا حديثنا على نصوصه الشعرية وما فيها من بيانات إبداعية ونكت أدبية والله الموفق لما يحبه ويرضاه، والشريف المرتضى شاعر ضخم لا عيب في شعره إلا أنّ أخوه الشريف الرضي بزه بشعره، وأرجو أنني قدمت بعض الحق لهذا العَلَمْ الكبير الذي خدم العقيدة وسهر الليالي في الدفاع عنها فجزاه الله خير الجزاء وعوضه جِنان الخلد إنه لطيف بعباده وكريم عظيم.

١٤٣٠/١١/٥ هـ

٢٠٠٩/١٠/٢٤ م

مدح المتنبي لكافور هجاؤه

نشر في مجلة الواحة في العدد الستين في السنة السادسة عشر شتاء ٢٠١٠م

إنني أريد أن أتحدث وأن أذيع بحثاً عن شاعر عملاق ترك في هذه الحياة ضجيجاً ودويّاً منذ لمع اسمه وسطع فكره في هذه الحياة المتنبي شاعر الإنسانية.. شاعر الخلجات النفسية الذي درس كل خطرة تخطر في أفق الإنسان أو تتولد من حزن أو فرح أو بسمة أو دمعة فسجلها صورة ناطقة في شعره السيار الذي سار في الحياة أمثالاً يتداولها حتى عوام الناس الذين لا يفقهون الشعر ولا الأدب وحتى لا يعرفون من هو القائل لهذا المثل أو هذا البيت هكذا المتنبي كان ولا يزال وهذه الخلجات والأفكار اقتبسها وولدها من قراءته لكتاب الله ومن نهج البلاغة حتى صار في قمة الفكر، واختلف فيه المفكرون والأدباء فمنهم من يكتب عنه بإعجاب فيجعله الشاعر الأول في الحياة منذ ميلاده عام ثلاثة وثلاثمائة بالكوفة حتى وفاته وإلى يومنا هذا، وبعض الأدباء والنقاد يهاجمونه بعنف وينكرون كل ما له من صور شعرية أو مثل إنساني يهز القلوب ويحرك المشاعر وهكذا سيرة المفكر العملاق تتجسد على أفكاره معارك نقدية ومعارك ثنائية وأخرى

تشرِّق وتغرِّب وقد صور المتنبي هذه المعارك بقوله:

أنام ملئُ جفوني عن شواردها

ويسهر الخلق جراها ويختصمُ

لقد صور المتنبي وجسد هذه المعارك النقدية التي تزاحمت على فكره وشعره حتى أصبح الأدباء يتسابقون إلى شرح ديوانه ونقده ولا يزال على قيد الحياة وهذه من الغرائب التي تواكب مفكرينا ونوابغنا في حياتهم كشرقيين عرب فنحن قد نقدر المفكر ونجله ونعطيه حقه أو بعض حقه إذا توارى عن الأعين وراء جدار التاريخ، لقد ترك المتنبي ثروة ضخمة طوفت في آفاق العالم ولم تختصر هذه الثروة على الفكر العربي بل ترجم إلى عدة لغات وكتب عنه المستشرقون والغربيون كتابات إعجابية وهذه الثروة الذي تركها برغم قصر عمره الذي لم يتجاوز الخمسين عاماً ولكنه عاش في فكر الإنسانية،وسيعيش حتى يرث الله الأرض ومن عليها برغم عمره المادي الذي هوعمر الورود لم يعمر المتنبي في هذه الحياة بجسمه المادي ولكنّ فكره عُمِّرَ، ولا يزال شاباً في ربيع الحياة يشارك الأحياء حياتهم ويتنسم معهم في هذا الأوكسجين ويعيش معهم في بيوتهم وفي حركاتهم وسكناتهم وكثر حاسدوه فأصلوه نقداً ولكنَّ ذلك النقد لم يزده

إلا رفعة وخلوداً لأن بعض النقاد لم يكن نقدهم بناء وهادفاً بل نابعاً من الحسد الذي يأكل حاسديه قبل المحسود وإذا ضاق بهم سماء الفكر نبذوه بأنه شاعر مداح يمدح من أجل المادة أو أنه يمدح، وإذا لم يرضه ذلك الممدوح هجاه، وقد مدح كافور الأخشيدي، وهو يرى نفسه أرفع وأعلى منه ولكنه نزل لهذا السفل لأجل المادة التي يتحصل عليها من كافور لأنه حاكم مصر وتحت يده ثروة طائلة فيستطيع أن يغدق عليه بمدحه ونريد أن نقف مع هؤلاء النقاد ولست الوحيد الذي رد على أولئك النقاد فالردود لا تحصى ولا تعد وشرَّاح ديوان المتنبي لا يحصرون ولا يعدون والشاعر المتنبي قد أشار إلى هذه الظاهرة فقال:

أنام ملأ جفوني عن شواردها

ويسهر الخلق جراها ويختصمُ

وإذا أتتك مذمتي من ناقصٍ

فهي الشهادة لي بأنيَ كاملُ

فهو هرم من الأهرام الفكرية التي لا تطاول ونخاطب النقاد الذين نبذوه وعابوه بحقيقة يلمسها كل من يقرأ شعر المتنبي فالمتنبي لو قصر شعره على مدح الممدوح لما كان ما كان له من هذه الرفعة وهذا الانتشار وهذا الخلود، لكنه يضمن قصائد

مدحه خلجات نفسية وخاطرات إنسانية تصور المجتمع وتصور الحياة وبهذه الظاهرة التي اختص بها ميزت شعره ورفعته إلى أوج بعيد المرمى مشرق الضوء ولكنني أريد أن أحصر بحثي في نقطة واحدة لم يتعرض لها النقاد أو بالأحرى لم أقف عليها وربما أنبرى لها ناقدون لم أرهم ولم أقف عليهم، وهذه الظاهرة التاريخية التي رمي بها شاعرنا العملاق أبو الطيب المتنبي وعُيِّرَ بها ولصقت به أنه مدح كافوراً ثم هجاه وما عدا هذه النقطة قد رد على نقاده واحتدم الجدل حول المتنبي وألفت كتب لا أريد أن أتطرق إليها في هذا البحث فالمتنبي كتاب مفتوح قامت عليه معارك فكرية وملاحم أدبية، وحتى يومنا هذا وحتى يأذن الله بطي هذا الكون، وعوداً على بدء أنني أريد أن أسجل في حديثي هذا جواباً ولعله يكون مقنعاً للذين انتقدوا المتنبي في مدحه لكافور الأخشيدي وبعد مدحه انقلب عليه عندما أحرمه مما طلبه منه من ولاية أو إمارة فمسح به الأرض فهنا أقف وأخاطب النقاد في هذه الظاهرة الخاصة التي تتعلق بكافور فقط فأجيبهم أنّ المتنبي لم يمدح كافوراً يوماً ما وحتى في قصائده التي تصورها النقاد أنها مدح بل هي أسلوب ذم في معرض المدح وهذه النقطة تحتاج إلى تمهيد في حروف مقتضبة دقيقة، إنّ اللغة العربية التي هي أجمل اللغات وأفصحها وقد زادها شرفاً عندما نزل كتاب الله بهذه اللغة وحتى

روى بعض الراوين عن الرسول الأعظم ﷺ أن اللغة العربية هي لغة الجنة فما أعظمها إذا صح هذا الحديث وإذا لم يصح فكفاها شرفاً ومجداً وفخراً أن كتاب الله الذي هو معجزة لنبينا الخاتم ﷺ نزل بلغتها، فبعد هذا التعريف للغة العربية ندخل في أعماقها وفي النكت البيانية والبلاغية، ففي اللغة العربية أسلوبان أسلوب ذم في معرض المدح وأسلوب مدح في معرض الذم والأسلوبان لهما نكتتهما البلاغية ولهما دلالتهما المعنوية، فأسلوب الذم في معرض المدح مثل قولك (لا عيب فيهم غير أنَّ سيوفهم) إلخ.. فهذا المدح الذم في أول البيت يعقبه مدح في غاية المدح فلأول مفاجأة تفتتحه تشعر بالذم ولكنّ الأسلوب يسوقك إلى قمة المدح، أما أسلوب المدح في معرض الذم فعند ما تفتتح أول الكلمات من صدر البيت ترى المدح ولكنّ آخره يوصلك إلى هاوية الذم وسندلل على ذلك من شعر المتنبي في كافور الذي مضى عليه زمن طويل والناس أو بالأحرى المفكرون والأدباء يظنونه مدحاً من المتنبي لكافور، أما هجاؤه لكافور فهذا واضح ولا يحتاج إلى بحث وتدليل ولهذا الوضوح لا نتعرض لهذا الأسلوب وإنما نقصر حديثنا على شعر المتنبي الذي مدح به كافوراً كما يعبر عنه شراح ديوان المتنبي.

ونقيم الدليل والبراهين على أنه أسلوب مدح في معرض الذم ونبدأ بقصيدته التي هنأ فيها كافوراً عندما بنى له داراً أو قصراً حسب التعبير العصري بإزاء الجامع الأعلى على البركة:

قال:

إنما التهنئاتُ للأكفاءِ

ولمن يدَّني منَ البعداءِ

وأنا منك لا يُهَنِّي عضوٌ

بالمسراتِ سائرَ الأعضاءِ

مستقِلٌّ لك الدِّيارَ ولو كان

نجوماً آجُرُّ هذا البناءِ

قف معي أيها القارئ لتلمس سخرية الشاعر المتنبي من كافور إذ لايراه كفؤاً لتهنئته بهذه الدار ويقول إنما التهنئة للأكفاء وأنت لست كفؤاً للتهنئة، وإنما التهنئة للأجانب وأنا قريب منك فلا يصح لي أن أهنئك، ثم يوغل في السخرية فيقول: وهل يهنئ العضو عضوه في المسرات إنما التهنئات للبعداء والعضو لا يهنئ عضواً منه.

ويضيف المتنبي من سخريته من كافور حيث يستقل عليه

هذه الديار ولو كانت مبنية من النجوم عِوَض عن الآجر أي الجص (من مواد البناء القديمة) فهل هذه السخرية التي صاغها في هذه القصيدة وأشرك نفسه مع ممدوحه وترفع عليه فهل هذا يعد مدحاً أو هو مدح في معرض الذم.

على القارئ أن يقرأ هذه القصيدة ويتأملها ويحكم بما يراه.

وقال يمدح كافوراً سنة ست وأربعين وثلاثمائة ومنها:

ترعرعَ المَلِكُ الأستاذُ مُكتهلاً
قبل اكتِهالٍ أديباً قبلَ تأديبِ

مُجرَّباً فَهَماً مِنْ قَبْلِ تَجربَةٍ
مُهذَّباً كرَماً مِنْ غيرِ تهذيبِ

حتى أصابَ منَ الدنيا نهايتها
وهمُّهُ في ابتداآتٍ وتشبيبِ

يُدَبِّرُ المُلْكَ من مصرٍ إلى عدَنٍ
إلى العراقِ فأرضِ الرُّومِ فالنُّوبِ

وهنا نقف مع المتنبي وقفةً أخرى لنقرأ ما تصوره الشراح لديوانه مدحاً في كافور فالمتنبي بعد أن خلص من تشبيبه الذي

يعدُّ في عصر المتنبي أسلوباً جديداً لم يتطرق إليه الشعراء من ذي قبل فهو يصف الجآذر وكأنهن الفتيات في زينتهنَّ وكيف إذا خرجن من الحمام ويقارن بين الحضارة والبداوة ويشير إلى جمال الصحراء وجمال القصور فالاتي في القصور جمالهنَّ بتطرية وفي فتيات الصحراء جمالهنّ طبيعي غير مكتسب بزينة أو بتطرية وضرب مثلاً بخلجات النفوس وقسوة الدهر عليه فخاطب الحوادث ليتها تعاملت معه فباعته الذي أخذته منه بما أعطته من حلم وتجريب فإنّ الحلم ليس مقصوراً على الشيوخ فإنه قد يوجد في الشبان كما يوجد في الشيوخ ثم تخلص إلى هجاء كافور ولا أقول مدحه فأعطاه لقبه الذي يعرف به كلمة الأستاذ، فيخاطبه إنّ هذا الملك الأستاذ ترعرع وشبَّ مكتهلاً بدون اكتهال وأديباً بدون أدب أليست هذه من السخرية هل يبلغ المرءُ إلى عمر الاكتهال قبل الاكتهال من الجائز أن يكون أديباً في خلقه قبل أن يكون أديباً في ثقافته وتفكيره إذا أردنا نصرف كلمة أديب إلى الأدب، التي تعطي معنى الفكر أو الذي يحوز من كل فن طرفاً كما يعبر الأوائل، ويمضي المتنبي في سخريته فيوصف كافوراً أنه مجرب من قبل التجربة وفهماً من قبل الفهم ومؤدباً بدون أدب فماذا يقصد وكيف يكون الإنسان فاهماً قبل الفهم ومجرباً قبل

التجربة ومؤدباً قبل الأدب، أليس هذا من السخرية بوضوح وليس بمدح إنما هو أسلوب مدح في معرض الذم، واسمعه كيف يزيد في سخريته ويصفه أنه بلغ من الدنيا غايتها ولا تزال همته في ابتداءات وتشبيب وما هو التشبيب هل اشتغاله بأيام الشباب عن الملك أو التشبيب.. أي الغزل بالنساء لا نعرف ماذا يقصد من هذه السخرية لقد غلفها تغليفاً عميقاً ثم أوغل في سخريته فقال إنّ كافوراً يدير الملك، ويدبره من مصر إلى عدن إلى العراق، وليس تحت حكمه إلا مصر فقط فلماذا هل أهو يضحك عليه أم هي سخرية.

وقال يمدحه في شوال سنة سبع وأربعين وثلاثمائة:

وقد استشففنا من قصائد المتنبي التي قالها في كافور مادحاً إذ قد يمر في أسلوبها الشعري مدح صريح لا لبس فيه ولكنّ المتنبي يمزجه بصور فخر وتعالي على كافور أو بصورة سخرية يسخر فيها منه فخذ مثلا هذه القصيدة التي مطلعها

أُغالِبُ فيكَ الشُّوقَ والشوقُ أغلَبُ

وأعجبُ مِنْ ذا الهجرِ والوصلُ أعجَبُ

ويستمر في هذه القصيدة العصماء ويبث شكواه وحزنه العميق في هذا الأسلوب الشعري حتى يبلغ من بث حزنه، لا يقول

قصيدة من القصائد إلا فيها شكوى وعتاب للزمن الذي قسا عليه ولم يعطه مرتبته التي يستحقها وفي رأي المتنبي إنه عبقري حيث أنزله الزمن فصار يقف بباب كافور ويمدحه ومثله ولا يصير إلى ما صار إليه من جلوسه على دس الحكم.

ونريد أن نقف مع المتنبي في ثلاثة أبيات من مدحه لكافور:

وما طرَبي لمَّا رأيتُكَ بِدعةً
لقد كُنتُ أرجو أنْ أراكَ فأطربُ

وتعذلُني فيكَ القوافي وهِمَّتي
كأني بمدحٍ قبل مدحِكَ مُذنِبُ

ولكنَّهُ طالَ الطَّريقُ ولم أزَلْ
أُفَتِّشُ عن هذا الكلامِ ويُنهَبُ

فهو يخاطب كافوراً ليس طربي لما رأيتك بدعة ولكن كنت قبل أن أراك أتمنى أن أراك لأطرب، ويستمر في أسلوب سخريته ويقول المتني تلومني القوافي في مدحي إياك حتى بلغ من لومها كأني عندما مدحت غيرك قبل مدحك مذنب، وقد طال طريقي وأنا أفتش في هذا الكلام ولكنه يفر مني ولكنه ليس فرار القوافي وإنما ينهب مني نهباً، لحظة نقف مع المتنبي فنسأله

لماذا يطرب إذا كان كافور بدعة وماهي البدعة وكيف كان يتمنى المتنبي رؤية كافور ليطرب، ما هذا الأسلوب الشعري وكيف تعذله القوافي، وكأنه قبل مدحه مذنب ويفتش عن هذا الكلام بعد طول الطريق فيأخذ منه قسراً أليست هذه كلها سخرية، وبعد ذلك يطلب منه أن ينوطه أن يعطيه ضيعة أو ولاية أو إمارة ولم يطلب من أحد من الذين مدحهم هذا الطلب، أليس هذا تحقيراً وتعالياً عليه كأنه يقول لكافور أنا أولى منك بالملك لأنك لست أهلاً لذلك.

وقال يمدحه، وأنشده إياها في شوال سنة تسع وأربعين وثلاثمائة، وهي آخر ما أنشده، ولم يلتقيا بعدها ومنها:

لـيـالـيَ عـنـدَ الـبـيـضِ فَـوْدَايَ فِتنَةٌ

وفـخرٌ وذاكَ الـفخرُ عـنديَ عابُ

فـكيف أذُمُّ الـيـومَ مـا كُنتُ أشتهي

وأدعـو بـمـا أشكوه حِينَ أُجـابُ

جلا اللونُ عن لونٍ هدَى كلَّ مسلَكٍ

كما انجابَ عن ضوءِ النَّهـارِ ضبـابُ

ومنها:

أعـزُّ مكانٍ فـي الدنى سـرجُ سـابِـحٍ
وخيرُ جـلـيسٍ فـي الزَّمانِ كتـابُ

وقفة مع المتنبي في قصيدة قالهـا فـي مـدح كـافور وكـانـت هـذه القـصيدة مـن الـشعر الـذي تنطبـق عليـه كلمـة شـعر فهـي فـي القمـة، وكـان المتنبـي فيهـا يفخـر بمجـده، وحـق لـه أن يفخـر ففـي جسمه نفس لا تشيب ولو بلغ أقـصى العمـر فروحـه لا تـزال كعـاب وضرب لنا مثلاً فـي عـزة الـنفس وفـي خيـر جلـيس وهـو الكتـاب.. الكتـاب الـذي لا يـؤذي وينقلـك إلـى قـرون وعـصور تـسامرهم ويسامروك حتى جاء إلـى مـدح كـافور وهـي آخـر قـصيدة أنـشدها إياه ولم يلتقيا بعد هذا الإنشاد ولم أجد فـي أسـلوب هـذا المـدح ذمـاً أو تعريضاً ولعل المتنبي شغله طموحـه ومطالبتـه لكـافور بإعطـاءه ضيعة أو ولاية، فكانت كلها أسلوب مدح لا سخرية.

ومن قصيدة في مدح كافور سنة ست وأربعين وثلاثمائة:

وقفة مع المتنبي في أبيات من قصيدة في مدح كافور لنعرف هل تـضمنت هـذه القـصيدة أبيـات سـخر فيهـا المتنبـي مـن ممدوحـه ولنفـسرها ونـشرحها فبعـد أن تخلـص المتنبـي مـن مقدمـة قـصيدته ليخلص إلى ممدوحهِ كافور:

هُما ناصِرا مَنْ خانهُ كُلُّ نـاصر
وأُسـرةُ مَـنْ لم يُكثِرِ النَّسْـلَ جـدُّهُ

أنا اليـومَ مِنْ غِلمـانِهِ في عشيرَةٍ
لنـا والِدٌ منـه يُفـدِّيـهِ وُلْـدُهُ

إنّ المتنبي صور كافوراً أمضى سلاح يتقلده المرء إذا خرج إلى أية معركة من هذه المعارك، ورجاه هو السلاح ثم يضيف بعده بيتاً، وهو ناصر من خذله كل ناصر وهو من أسرة لم يعقب جده ذرية كثر فتأمل معي هذين البيتين فهل يصح أن يكون كافور سلاحاً كما يتقلد المتنبي السيف أو أنه من أسرة ما كثرت فيها النسل، لأن المتنبي يراه عبداً مملوكاً فكأنه إذا نسل جده أو أبوه إنما ينسل عبيداً ليسوا مستقلين إنما هم مملوكون لسادتهم وهذا من السخرية اللاذعة أليس هو بشراً وهذه نعرة من نعرات الجاهلية وأجِلُّ المتنبي أن ينحدر إلى هذا المستوى، ومن الجائز أنه قصد بهذه المقولة معنى آخر لم يصل له فهمي، ولعل المتنبي أراد أن يلقي على ما قاله في البيتين السابقين ستاراً فقال: إنّ كافور أهدى له غلمان فالمتنبي وهؤلاء الغلمان من عشيرة كافور تعويضاً له عن عدم نسل جدِّه، فهم يفدوه وهو والدٌ لهم.

ودس عليه كافور من يستعلم ما في نفسه، ويقول له قد طال قيامك عند هذا الرجل.

فقال:

يَقِلُّ لـهُ القيـامُ على الرُّؤوسِ

وبذلُ المكـرماتِ من النفوسِ

إذا خـانته في يومٍ ضحُـوكٍ

فكيف تكـونُ في يـومٍ عَبُوسِ

ونتحاور مع المتنبي عندما دس له كافور دسيسة لتستطلع ما في نفسه تجاهه ليلقي عليه الحجة فيعتقله ولا يدعه يخرج من مصر لأنه يخشى إذا خرج أن يهجوه هجاءً لاذعاً، وكان ما كان يحذره كافور فأجاب الدسيسة ببيتين لهما وجهان قد تحملهما على الهجاء وقد تحملهما على المدح وهذا من ذكاء المتنبي وعبقريته فهو يقول: يقل له القيام على الرؤوس وبذل المكرمات من النفوس أي كلما يفعل الشخص من رفع كافور وبذل له وخدمه فهي قليلة في حقه، وإن أردت أنه لا يستحق رفعه وخدمته وبذل المكرمات، ويفسر البيت الثاني البيت الأول فقد وضحت فيه السخرية فإنّ النفوس إذا خانت كافوراً في يوم ضحوك فكيف

تخونه في يوم عبوس وهذه المقولة جاء بها المتنبي معكوسة إنّ اليوم الضحوك لا يحتاج فيه إلى خيانة لأنه يوم ضاحك لا شر فيه أما اليوم العبوس فهو الذي يفر منه البشر ويخونون فيه.

واستأذن كافوراً في المسير إلى الرملة ليخلص مالا كتب له به وإنما أراد أن يعرف ما عند كافور في مسيره، فقال: لا والله لا نكلفك المسير، نحن نبعث في خلاصه ونكفيك، فقال:

أَتحلِفُ لا تُكلِّفُني مسيراً
إلى بلدٍ أُحاولُ فيه مالا
وأنتَ مُكلِّفي أنبى مكاناً،
وأبعدَ شُقَّةً وأشدَّ حالا
إذا سرنا على الفسطاطِ يوماً
فلَقِّنيَ الفوارِسَ والرِّجالا
لتعلمَ قدرَ مَنْ فارقتَ منِّي
وأنكَ رُمتَ من ضيمي مُحالا

ونقف مع المتنبي وقفة تأملية نستشف ما في صور هذه القطعة التي يخاطب بها كافوراً وما فيها من صور تهكمية وسخرية حيث يقول إن تقسم قسماً وتحلف يميناً أنك لا تريد أن

تجشمني تعباً أن أسير إلى بلاد لأتحصل فيها على مال ولكنك تستعبدني وتجشمني ما لا أطيقه وأنت لست أهلاً لذلك، وعملك خلاف ما تظهره. فإنك تجشمني هولاً لا أستطيع حمله فأنا أنبو عنه كما ينبو عنه السيف، وأشد حالاً من الحالة التي أنا عليها معك، وكأني أسير معك في عاصمة ملكك الفسطاط فإذا سرت معك وفارقتك هو خير لي فأمر أبطالك وجنودك بردي إليك فإنك لا تستطيع ردي إليك ولا تقدر على ذلك، وعندما تعجز عن إعادتي وسجني لديك ستعلم قدر ومجد من فارقتَه إنك لا تستطيع ضيمي ولا إهانتي لأن قدري وتقييمي لا تعرفه ولا تستطيع مسه.

وقال يمدح كافوراً وقد أهدى إليه مهراً أدهم عام ٣٤٧ هـ:

ونقف مع المتنبي وقفة حساسة نستشفُّ منها ما وراء الصور لنصل إلى جوهر المعنى فاسمعه يتحدث ويقول:

فِراقٌ وَمَنْ فارَقتُ غيرُ مُذَمَّمِ
وأَمٌّ ومنْ يمَّمتُ خيرُ مُيَمَّمِ

فراقٌ ولكنَّ الذي فارقه غير مذموم إنّ في هذه الصورة لتناقض فإنّ الفراق مر المذاق ومتى كان فراق الأحباب غير مذموم إلا إذا كان من فارقته مزهوداً فيه وثقيل الظل عليك في الحياة وهو عدو لك أو لعللك لا تميل له ولا تربطك به أي روابط

من روابط هذه الحياة ثم يحسن الصورة ويقول إنّ الذي قصدته غير مقصود ولا ندري في هذه الإشارة هل يريد بها بعد أن يتخلص من كافور ويفارقه فالذي يقصده ويزوره بعد كافور هو خير مقصود حتى تكتمل الصورة وإلا إذا كانت تشير إلى كافور فكان بين الصدر والعجز تناقض وبون شاسع.

وقال:

فلوكان ما بي من حبيبٍ مُقَنَّعٍ
عَذَرْتُ ولكنْ من حبيبٍ مُعمَّمِ

ثم استمع معي إلى هذه السخرية لأنّ العصر الذي عاش فيه شاعرنا العملاق المتنبي كان يهوِّنُ من شأن المرأة وقيمتها، حيث أن الذي يلاقيه من عناء وجفوة من حبيب مقنع أي من أنثى كان أوجد له عذراً وتجاوز عن أخطاء وجفوة ذلك الحبيب لو كان تصدق عليه كلمة حبيب، ولكنّ الذي يلاقيه من رجل معمم أي يحمل عقلية فلذلك لا يعذر ذلك الحبيب فهو يسخر من ممدوحه ولكننا نحب أن نعلق على شاعرنا ونهمس في أذنيه من وراء التاريخ البعيد ويسمح لنا شاعر الإنسانية أن نخالفه ونهوِّن من نظرته حول الأنثى التي هي الرئة التي يتنفس منها المجتمع فالمرأة هي كمال للرجل والرجل كمال للمرأة خلقهما الله وجعل لهما

حسب طبيعتهما حدوداً وشأناً اجتماعياً يقومان به في هذه الحياة حتى تكتمل الصورة وتمتد هذه الحياة.

وقال:

إذا ساءَ فِعلُ المرءِ ساءتْ ظُنُونُهُ

وصدّقَ ما يعتادُهُ من توَهُّمِ

وهنا المتنبي شاعر الإنسانية يضرب مثلاً عاماً يريد به المجتمع الإنساني وإن كان يعرض بكافور فإنّ كل فعل يصدر من امرئ سيئ يجيئ نتيجة حتمية من معدن ظنونه السيئة فهو وليد من سمائها وبعد أن تلبّس المرء بهذه الحياة التي حولته من إنسان إلى امرئ سيئ الأفعال والظنون يصدق حتى الأوهام ويراها واقعية تتمثل له في حياته وفي يقظته وفي نومه، وأنت إذا قرأت المجموعة البشرية وسبرتَ حياتها النفسية شاهدت ولمست هذه المقولة تتمثل واقعياً في حياة هذه الشريحة.

رحم اللّه المتنبي فقد قرأ خلجات أنفس البشر حيث استشفها من كتاب نهج البلاغة أعظم كتاب في الحياة بعد القرآن الكريم وبعد كلام رسول اللّه صلى الله عليه وآله.

وقال:

وقد وصلَ المُهرُ الذي فوق فخذهِ
مِنْ اسمِكَ ما في كُلِّ عُنقٍ ومِعصَمِ
لكَ الحيـوانُ الراكبُ الخيـلَ كُلُّهُ
وإن كـان بالنِّـيرانِ غير مُـوَسَّمِ

ويقف المتنبي في هذه القصيدة ليسخر من مهديه كافور الحيوان المهر أي الخيل الصغير الذي كان كافور يوسم كل حيوان باسمه على فخذه فاستغل المتنبي هذه السمة ليسخر من كافور فيقول له كل راكب على هذه الدابة أو ما يماثلها فهو ملكك وراجع لك وإن لم يوسم اسمك عليه بالنار.

يذكر حمى كانت تغشاه بمصر ومنها:

فلمَّـا صار ودُّ النَّـاسِ خِبَّـا
جَزَيتُ عـلى ابتسامٍ بابتسامِ
وصِرتُ أشكُّ فيمن أصطـفيهِ
لِعلـمي أنَّهُ بعـضُ الأنـامِ

وقفة مع المتنبي لنتحدث معه والحمى تهزه هزاً عنيفاً

وتغسله بالعرق الساخن في كل ليلة عندما تفارقه ويتمطى الصباح ويفتح جفنيه ليرسل أنواره على الأفق وهو وحيد وكان في قصيدته فناناً مصوراً ترسم ريشته رسمة ملونة تتحرك مع كل فصل من فصول ما يعانيه ألوان وصور الحمى وليس معه من يخفف عنه هذه الويلات وهذا العناء الذي يقاسيه لا كف تربته ولا ثغر يبسم له فليس معه إلا اللّه وكفى به حارساً وكافياً، وهذه القصيدة من قصائده العصماوات التي أبدع فيها إبداعاً هائلاً ولكنه لم يفته حتى عرَّض بكافور في مثال حيٍّ متحركٍ يصور البشرية حتى يومنا هذا وبعد يومنا حتى يخرج قائم أهل البيت فيهذب هذه النفوس ويعيدها إلى إنسانيتها، فلما قرأ المتنبي صورة البشر المتحركة فوجدها تظهر مالا تخفي وتخفي ما لا تظهر فإنّ حبها هو حب خداع وابتسامتها ابتسامة مكر فهو يجزيها بمثل ما تعامله وحتى تغلغل به هذه القراءة فبلغ بها الهوس واليأس حتى صار يشك في من يجعله خليلاً ويصطفيه كأخ له لعلمه أنه من الأنام، وقد روي عن المتنبي الرواية التاريخية أنّ كافوراً كان يضاحكه ويبتسم له ولما سمع هذه القصيدة وهذه المقولة صارلا يبتسم له ولا يضحك فاستدل المتنبي على فطنة كافور وذكاءه.

ونظر يوماً إلى كافور فقال:

لـو كـان ذا الآكـلُ أزوَادنـا

ضيفاً لأوسعنـاهُ إحسانـا

لكنـنا في العيـنِ أضيـافُهُ

يُوسعُنـا زوراً وبهتـانا

فـليتهُ خـلَّى لنـا سُبلنـا

أعـانـهُ اللَّه وإيَّـانـا

وقفة مع المتنبي لنقرأه وهو يتهكم على ممدوحه كافور ويشير في مقولته الوصفية للضيف والمضيف، فهو يصف كافور أنه يأكل من زاد المتنبي برغم أنه ضيف لديه ولكن الصورة انعكست فصار كافور هو ضيفاً للمتنبي وليس المتنبي ضيفاً له ومعناه أن كافور كل ما مدحه المتنبي فهو يشيد به ويخلده فكأنما هو يأكل من زاده في حياته الفانية وبعد حياته سيخلد اسمه وأفعاله في ديوان الحياة ينبض حرفاً من حروف المتنبي ومع ذلك يتمنى المتنبي أن تنعكس الصورة فيكون كافور ضيفاً حقيقياً للمتنبي حتى يوسعه تقديراً وإحساناً، وبرغم ما يعمله كافور مع ما يراه المتنبي من إهانات له فإنه يعتد بشخصيته

ويراها أفضل منه لأنه الشاعر الذي هو أمنية كل شخص يتمناها أن يقول فيه ولو بيتاً واحداً فبرغم هذا وذاك يدعو لكافور بأن يعينه الله ويخرجه من هذه الصورة المسيئة للضيوف إلى صورة فضلى.

ونختم هذه الصورة التي تحدثنا فيها وأذعنا ما ارتئيناه من رؤية في مدح المتنبي لكافور وهي هجاء له بما صرح به المتنبي حيث صور مدحه أنه هجاء له وليس بمدح ولم يقل هذه المقولة مع غير كافور فعندما غضب على سيف الدولة وفارقه أخذ يعاتبه عتاباً مرّاً حيث إنه يحبه ويفي له وسيف الدولة لا يبادله هذا الحب والوفاء ولم يقل في أي لحظة إن مدحه هجاء بل لم ينبث بهذا الرأي وهذه الفكرة لشخص من الأشخاص أن مدحه كان هجاء إلا في كافور فاسمعه وتأمل في هذه الصورة التي صرح بها الشاعر العملاق المتنبي:

ولولا فضولُ النَّاسِ جئتُكَ مادِحاً

بما كنتُ في سِرِّي به لك هاجيا

فأصبحتَ مسروراً بما أنا مُنشِدٌ

وإن كان بالإنشادِ هجوكَ غاليا

فإنْ كنتَ لا خيراً أفَدْتَ فإنني
أفدْتُ بلحظي مِشفريكَ الملاهيا
ومِثلُكَ يؤتى من بلادٍ بعيدةٍ
ليُضحِكَ ربَّاتِ الحِدادِ البواكيا

لولا فضول الناس أي تدخلهم فيما لا يعنيهم وإيثارتهم غبار الفتنة بين الحاكم والمحكوم فإنّ الصورة التي جئتك بها مادحاً هي معكوسة المفهوم والمنطوق فهي في سري هجو لا مدح لك، وإن كنت يا كافور في هذه الصورة فرحاً بما أنشدك به من مدح ولكنّ هذا الإنشاد ليس مدحاً وأترفع عن هجوك لأنّ هجوك أغلى منك، ثم يبدع في الصورة فيوغل في هذه الرسمة فيصف أن كافور لا خير فيه ولا فائدة تعود منه على البشرية ولكنَّ الخير لمحه المتنبي في شقوق قدميه وفي مشفريه الملاهي التي يتلهى بها كل من كان حزيناً فمثله من يجيء له ويقطع الدروب ويطوي الصحراء ليستأنس به ويسليه وهو يؤنس حتى البواكي ربات الحداد الباكيات على فقيدها فمنذ ينظرن له يذهب عنهن الحزن ويسلين وتعود إلى سيرتهن الطبيعية.

هذا ما قاله المتنبي ونختم به رؤيتنا فيما ارتأيناه من صورة اقتبسناها من مقاطع من شعر المتنبي في كافور.

والله أعلم بالحقيقة،،،

١٤٣١/٧/٥ هـ

٢٠١٠/٦/١٧ م

أبي فراس الحمداني

٣٢٠ هـ ـ ٣٥٧ هـ

٩٣٢ م ـ ٩٦٨ م

ولد أبو فراس في مدينة الموصل بالعراق، من أسرة كريمة المحتد، وقتل أبوه في خدعة دبرها له ابن عمه، وأبو فراس لا يزال طفلاً، فأخذه ابن عمِّه سيفُ الدولة فتربى في بلاطه، وتدرَّب على أساليب الفروسية والبطولة.. فكان بطلاً شجاعاً مُعلِماً لا يبالي بالجاحفل، وأمّره سيف الدولة على منبج وحرَّان، فكان مثال الأمير المخلص لأميره ولصهره لأنه تربطه به روابط أسرية وأدبية وسياسية، وضرب مثلاً في البطولة والشجاعة فهو مغامر يحمل روحه على كفِّه لا يبالي بها ويلقي بنفسه في المعارك التي ابتلى بها سيف الدولة مع جيش الروم وكانوا في صراع طويل وأكثر ما يصدُّ في هذه المعارك ويهزمها أبو فراس ولولاه لانهزم سيف الدولة وتغلب عليه جيش الروم وسنشير لقصة أسره وعدم وفاء ابن عمه له ونريد هنا أن نعطي صورة مختصرة عن شاعرية أبي فراس التي تولدَّت من أسر ومن جرح ينز ومن حرمان الأهل والوطن ومن عدم وفاء قوبل به من ابن عمِّه سيف الدولة وكان قائده الفدائي

وأخو زوجه وخال أولاده، ولكنها السياسة التي تتلون كالحرباء ولا تراعي لدى المصالح قربى، ولعله من الخير أسر أبي فراس لينفحنا بقصائده الروميات التي هي لوحة من اللوحات الفنية وخلَّدت أبا فراس حتى قيلت المقالة القديمة بدأ الشعر بأمير وختم بأمير، وأنا لا أؤمن بهذه المقولة لأن الشعر لا يُختم ولا ينتهي ما دامت الحياة في تطور والعقل يواكب التطور والاختراع وليد الحاجة، والشعر هو فيض من خالق العباد يفيضه عليه ويخلق فيه العبقرية ويفجر فيه المعاني والإبداع، وهو المعطي والمتفضل على عبيده بهذا العقل.. العقل الذي سخر للبشر هذا الكون يتحكم فيه بما أعطاه الله من قوة وإلهام، وأبو فراس له ميزة على الشعراء الذين سبقوه و عاصروه فشعره بما يحمل من صور شعرية فإنَّ تراكيبه وكلماته كانت عفوية تنساب مع الطبيعة دون تكلف وتعقيد وليست من اللغة التي تنفر المسامع منها وتشمئز، فأنت تقرأ أبو فراس ولا تكاد تملُّ قراءته وبودِّك أن تكرر القصيدة مرات ومرات، ولا سيما قصائده التي انبعثت من أسره والتي سميت بالروميات لأنها ولدت في سماء السجن وبين القضبان فهي تنز ألماً وتنبض قلباً من حنين ومن شكوةٍ مرَّةٍ ولا سيما شكوى من اهمال ابن عمه سيف الدولة عدم اهتمام لقضيته وهو مخلص له

كل الإخلاص وضحى بنفسه والتضحية بالنفس أقصى شيء في الجود والكرم، فما بعد النفس كرم، ونحب أن نهمس من وراء جدر التاريخ لابن عمه ونخاطبه كيف تركتَ ابن عمك وأخا زوجك سبع سنين يقاسي ولم تفده برغم العتاب المرِّ الطويل وقد خُيِّرتَ لأن تفديه بالأسير الذي عند (ابن بردس الأسطراطيغوس بن توذلس البطريق وهو ابن أخت ملك الروم) فأبيت أن تفديه أو تقدم له الفداء الذي يقدم عادة في ذلك العصر من نقود فظل أبو فراس رهينا زنزانته يعيش وراء القضبان سبع سنوات وبرغم ما استعطفته أُمه حيث ذهبت لسيف الدولة من منبج إلى حلب وبمركزها الذي تفرضه حيث إنها أم زوجه وجدة أولاده فلها مقام عنده، وأم قائده المخلص الفدائي، فظنت أنها تعود بالظفر والاستجابة لتحقيق رغبتها في رؤية ابنها قبل الموت ولكنها آبت كاسفة القلب تسكب فؤادها في دموعها وتعيش في حسراتها حتى ماتت ولم تر ولدها، وقد رسم أبو فراس هذه الصور في سيمفونياته الموجهة لأمه في حياتها وبعد موتها، ونحن نجهل السرَّ في تباطأ سيف الدولة وترك ابن عمه مع حاجته إليه لأنه القائد الأول المخلص الذي يقذف نفسه في لهواتها ولا يزال هذا السر يغطيه التاريخ ولعلي أعلل ذلك تعليلاً قد لا يكون ملامساً للواقع ولكنه يلامس

الظنون، والظن لا يغني عن الحق شيئاً لعل إبطاء سيف الدولة في مفادته ليحكم ولاية العهد بعده إلى ابنه أبي المعالي، وهذه الرؤية هي من الظنون لا من الواقع، والله يعلم بما وراء هذا الموقف الغريب من سيف الدولة، وقد سبق لي الكتابة عن أبي فراس في كتابي الشعر ودوره في الحياة الجزء الأول من المجلد الأول طبعة بيروت ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠٢ م.

ونكتفي بهذه اللمحة عن أبي فراس لنفتح معه أفق الشعر ونحلق فيه ونتحدث معه ونحاوره في تلك الصور الفنية البديعة.

١٤٣١/٨/٨ هـ

٢٠١٠/٧/٢٠ م

ونبدأ أول سهرة مع أبي فراس ونقتبس من أمير الشعر سيمفونية من سيمفونياته نتحاور معه في هذه اللوحة الفنية التي رسم فيها صورة واقعية نلمسها في كل لحظة من حياتنا حتى نكونها فاسمعه يتحدث:

أما يردعُ الموتُ أهلَ النّهى ... ويمنَعُ عن غيّه من غوى!

أما عالِمٌ، عارفٌ بالزّمان ... يروحُ ويغدو قصيرَ الخُطا

فيا لاهياً، آمِناً، والحِمامُ ... إليه سريعٌ، قريبُ المدى

يُسرّ بشيءٍ كأن قد مضى؛ ... ويأمنُ شيئاً كأنْ قد أتى

إذا ما مررتَ بأهلِ القبُور ... تيقنتَ أنكَ منهمْ غدا

وأنّ العزيزَ، بها، والذليلَ ... سواءٌ إذا أُسلِما للبلى

غريبينِ، ما لهُما مؤنِسٌ، ... وحيدينِ تحتَ طِباق الثرى

فلا أملٌ غيرُ عفو الإلهِ، ... ولا عملٌ غيرُ ما قد مضى

فإنْ كان خيراً فخيراً تنالُ؛ ... وإنْ كان شرّاً فشرّاً ترى

وقال:

وما إنْ شِبتُ من كِبَرٍ، ولكن
رأيتُ مِنَ الأحِبّةِ ما أشابا
بعثنَ مِنَ الهُمومِ إليَّ ركباً،
وصيّرنَ الصّدودَ لها رِكابا
ألم ترَنا أعزّ النّاسِ جاراً،
وأمرعَهُمْ وأمنعَهُمْ جنابا؟![1]

ولا نزال في سهرتنا وقد طاب الحديث وحلي السمر فنعود ونتحاور مع أبي فراس في قصيدة نختار منها شكوى مما ينجم من أقربائه ومن الزمن الذي لا وفاء له وبالتعبير الصحيح أنّ أهله لا لم يكونوا من الأوفياء يوماً ما حتى للرحم فهو يرى أن شيبه لم يكن من كبرٍ أو شيخوخة إنما هو شاب في ميعة الشباب ولكنَّ أقربائه من معاملتهم السيئة أشابته، ويعلل هذا الشيب بما حشدوه عليه من أرطال الهموم ومواكب الصدود فصيروها له بركاباً تنطلق به في ميدان بحر من لغوب، وهو يعنفهم في أسلوب فخر

---

(١) أمرعه: أخصبهم. جناب الدار: فناؤها، وما قرب من محلة القوم.

فإنه وقومه أعز مكان من الناس وأمرعهم جنابا أي أخصبهم ثناء دار، وبعبارة أوضح أي عطائهم مفتوح لجميع الناس وهذا من الفخر.

وهنا نريد أن نرسم صورة لأبي فراس في وفاءه وإخلاصه لمن تجاهل فدائه وتركه في زنزانته بعيداً عن أحبابه ووطنه قابعاً في قسطنطنية عندما سمع بخبر مزعج له أنّ ابن عمه سيف الدولة أصيب بعلة وهذه السيمفونية من رومياته الرائعة، فكتب له هذه الأبيات:

وعِلّةٍ لم تدَع قلباً بلا ألمٍ
سرَتْ إلى طَلَبِ العَليا وغارِبِها
هل تُقبلُ النّفسُ عن نفسٍ فأفديَه؟
اللّهُ يعلَمُ ما تغلو عليَّ بها
لئن وهبتُكَ نفساً لا نظيرَ لها،
فما سمَحْتُ بها إلا لواهِبِها

وقفة معي أيها القارئ لنتصور هذا الوفاء كيف ينبع من قلب صادق فإنّ العلة التي أصابت ابن عمه سيف الدولة فهي تسري في قلبه وبرغم أسره وسجنه فهي لم تدع له قراراً فقلبه يتألم ويسيل

وجعاً وحزناً وتسري في جسمه بل في عروقه وضلوعه فهذا الوفاء الذي قل أن يوجد وحتى يوغل في هذه الصورة فيقول لو أستطيع أن أشفيك بفداء نفسي لفديتك وإني لا أفدي بها أحداً إلا واهبها وهو الله.

الشعر ديوان العرب:

الشعر ديوان العرب	أبداً وعنوانُ الأدبْ
لمْ أعدُ فيه مفاخري	ومديحَ آبائي النّجُبْ
ومقطَّعات رُبّما	حلَّيتُ منهنَّ الكتبْ
لا في المديحِ والهيجاءِ	ولا المُجُونِ ولا اللعبْ

ولم نزل نتحدث مع أبي فراس في صورة شعرية رسمها عن الشعر، فالشعر هو ديوان العرب وعنوان الأدب فظل هذا المثل سائراً تتغنى به الأجيال جيلاً بعد جيل وإنّ مقاطع الشعر لا النظم هي تحلية للكتب فهي تزينها وتضيئها، فيرى الشعر جواً يتنفس فيه ويفخر به ويمدح آبائه، ولا يرى من الشعر المدح أو الهجاء أو المجون ولا اللعب إنما يرى الشعر الفخر وميدان الحرب والسيف والرمح والبطولة والشجاعة، هذه رؤية شاعرنا ترجمناها ولخصناها من صورة فكرته للشعر.

ومن أيـن يُنكِـرني الأبعَدون

أمِن نقص جَـدٍّ أمِن نقصِ أبْ

ألســتُ وإيّــاكَ مــن أســرَةٍ

وبـيني وبـينَكَ فوق النـسّبْ

ودادٌ تنــاسَبُ فيــه الكــرامُ

وتـربـيــةٌ ومَــحَــلٌ أشــبْ

ونـفسُ تَكبّــرُ إلا عـليــك

وتـرغبُ إلاّكَ عمّــن رغــبْ

فلا تَعـدِلـنّ فـداك ابـن عمّـ

ـك لا بل غُلامَـكَ عمــا يجبْ

ولعل بعض الواشين لم يكفهم أسر أبي فراس واحتجابه في زنزانته بعيداً عن أهله ووطنه فأثاروا فدائه بحيث يسعون إلى أهل خرسان ليفادوه تخفيفاً عن سيف الدولة فاتهم سيف الدولة أبا فراس بهذه الإثارة ولا ندري هل الذين أثاروا ذلك يريدون إنقاذ أبي فراس أو التضبيب بينه وبين سيف الدولة فسمع أبو فراس فكتب من سجنه هذه القصيدة التي هي من الروميات البديعة نأخذ منها

هذا العتاب المر الأخوي لعله يهزُّ سيف الدولة الذي لم يحفل ولم يهتم بسجنِ قائده المخلص الذي انتصر له في أكثر معارك سيف الدولة بأبي فراس ولولاه لكانت الهزيمة قريبة منه.

وقال: هو في الروم وقلبه في الشام

إنّ في الأسرِ لصبّاً دمعُهُ في الخدِّ صَبُّ
هو في الرّوم مُقيمٌ وله في الشامِ قلبُ
مُستَجِدّاً لم يُصادِف عِوَضاً مِمّنْ يحِبُّ

ونحب الليلة أن نطير إلى أبي فراس لنتحدث معه في زنزانته وتأثيره في مدينة قسطنطينية فنتحاور معه لنخفف عنه بعض آلامه وما يلاقيه من عدم الوفاء لفدائه من ابن عمه سيف الدولة فاسمعه في روميته، وهو يصور حسراته ومعاناته معاناة مأسور عاشق لوطنه وأهله وقلبه نزيز من الدموع على خده، وبرغم بعده وسجنه فجسده في الروم ولكنّ قلبه في الشام وهذا من الوفاء وعدم النسيان لأهله ووطنه، وبرغم الحفاوة التي عامله بها الروميون ولم ينزعوا عنه ملابسه ولم يأخذو سلاحه من عنده ولعله تحصل على بعض المؤنسين له منهم وبرغم هذا وذاك لم يتحصل على ما يعوضه عن أحبابه في الشام وهل تعوض الأحباب يا أبا فراس إنها لا تعوض كما قلت ورسمت صورتها.

وقال عتاباً علىٰ إهمال سيف الدولة له وطرقه له وهو في الأسر:

زمـانـي كُلُّهُ غَضَبٌ وَعَتْـبُ،
وأنـتَ عـليَّ والأيّـامُ إلـبُ
وعيشُ العـالمينَ لديكَ سـهلٌ،
وعيشي وحـدَهُ بِفِـناكَ صَعْبُ
وأنتَ وأنتَ دافعُ كُلّ خَطْبٍ،
مَعَ الخَطْبِ المُلِمّ عليّ خَطْبُ
إلى كَمْ ذا العقابُ وليسَ جُرمٌ
وكم ذا الاعـتـذارُ وليسَ ذنبٌ؟
فلا بالشّـامِ لـذّ بِفيَّ شُربٌ؛
ولا فـي الأسرِ رَقّ علـيَّ قلبُ
فـلا تحمل على قـلبٍ جريحٍ
بـهِ لحـوادث الأيّـامِ نَـدْبُ[1]

---

(١) الندب: أثر الجرح الباقي على الجلد.

ولا نزال في سهرتنا مع شاعرنا الكبير أبي فراس في زنزانته وهو يفجر عتابه المر قنبلة في حرف يلتهب ناراً إلى سيف الدولة حيث لم يفِ له وترى أبا فراس في صورة هذا الحرف الناري يكشف كل ستار ويعري كل حجاب فتراه صريحاً مكشوفاً فيبدأ بحرفه، إنّ الزمان كله عليه غاضب وسيف الدولة لقد ساعد الزمان في محنة الشاعر فكان إلباً عليه بدلاً من أن يكون عوناً، وهو القادر فعيش الناس عنده خصب وسهل عليه وسعادة، أما عيش أبي فراس فعنده جحيم وصعب التعايش معه لأنه لا وفاء معه، ويراه هو القادر على دفع الخطوب ولكنه يعامل ابن عمه أبا فراس بتجاهله وإهماله وتركه في زنزانته قسطنطينية تعمداً مع علمه ما ألمّ به من حوادث الزمان ويكون خطب عليه ويستمر أبو فراس في هذه الصورة العتابية المؤلمة التي ترق لها الصخور ويندى له الحجر الأصم ونثبت صورتها ها هنا ليطلع القارئ على ما في هذه القصيدة من رؤية ارتأيناها فيها وشرحناها ونختم هذه الصورة بخاتمة زخمة، وفيها تجربة مرة لتأخذ منها الأجيال درساً، حيث لم يلذّ له في الشام شرب ولم يطب له مطعم، ويكمل هذه الصورة لما صار أسيراً لم يرق عليه قلب وهذه إشارة واضحة لسيف الدولة، ويوغل أبو فراس في عتاب المر حيث يرد على سيف الدولة في عتبه عليه وهو يخاطبه لا تحمل عليّ خطوباً فإنك تحمل قلباً يحمل

أثقالاً من الخطوب على قلب صار جروحاً فاغرة وبدل من أن تضمدها تحمل قلبي تلك الخطوب فكأنه يقول هل هذا من الإنصاف يا بن عمي.

يا عيدُ:

يا عيدُ ما عُدتَ بمحبوبِ
على مُعَنّى القلبِ، مكروبِ
يا عيدُ قد عُدتَ على ناظرٍ
عن كل حسنٍ فيكَ محجوبِ
يا وحشةَ الدّار التي رَبُّها
أصبح في أثوابِ مربوبِ
قد طلعَ العيدُ على أهلهِ
بوجهِ لا حُسْنٍ ولا طِيبِ
مالي للدّهرِ وأحداثِهِ
لقد رماني بالأعاجيبِ

ولا نزال نواصل سهرتنا المأساوية مع أبي فراس في زنزانته بالقسطنطينية فقد أطل عليه العيد وهو في أسره فصور حياته وصور عيده الذي يعلق فيه أحزانه ويتصور وحشته وأسره حين مر

عليه العيد يثير شجونه ويجدد عليه ويلاته وحسراته وغربته وحرمانه من رؤية أهله وأحبابه، ويبعث له صورة طيفها يلاحقه في يقظته ونومه.. الفداء الذي تأخر عنه سيف الدولة ، فاسمع هذه الصورة المأسوية التي أوحاها شعوره الحزين.

من قصيدة له مع من تحب نأخذ منها خمسة أبيات وهي في رثاء أخته:

أتَـزعُمُ أنّـكَ خِدْنُ الوَفَـاءِ
وقَد حجبَ التُّرْبُ من قد حَجَبْ[1]

فإن كنت تصدق فيمـا تقول
فمُتْ قَبـلَ مَوْتكَ مَـعْ مَن تُحِبْ

وإلاّ فقـد صَـدَقَ القـائِلُونَ
مـا بَيـنَ حَيّيٍ ومَـيتٍ نَسَـبْ

عَقِيلَتيَ استُلبـتْ مـن يَـدِي
وَلَمّـا أبِعْهَا وَلَـمّا أهَـبْ[2]

---

(١) الخدن :الصديق

(٢) العقيلة :السيدة الكريمة ، وأراد بها أخته

وكنت أقيكِ، إلى أن رَمَتْـكِ

يَدُ الدّهرِ مِن حَيثُ لـم أحتَسِبْ[1]

ولم نزل مع أبي فراس حيث قسا عليه الزمن وضاعف عليه المصائب والشجون ففجع في موت شقيقته وهو بعيد عنها غريب مؤسر فراح يصور هذا النبأ الذي فيه من المرارة.. مرارة الفقد في مرارة الغربة ولا نريد ها هنا أن نشرح بيتاً بيتاً وإنما على القارئ أن يقرأ هذه الصورة المأساوية فيحكم بنفسه.

فـديتــك

فَدَيتُـكَ! مَـا الغَـدْرُ مِن شِيمتي

قَديماً ولا الهَجـرُ مِـن مَـذْهَبي!

وَهَبني، كـمَـا تَـدّعـي، مُـذْنِبـاً

أمَـا يُقْبَـلُ العُـذْرُ مِن مُـذنِـبِ؟

وَأَوْلـى الرّجَـالِ، بِعَتْـبٍ، أخٌ

يَكُـرّ العِـتَـابَ عَـلى مُعْـتِبِ

---

(١) أقيك :أحميك .أحتسب أظن وأتوقع.

ونقف مع أبي فراس وهو يرسل شواظ من مآسٍ فيها عتاب مرير ولعل هذا العتاب صدر من قلبه المشحون بالألم الواقد من عدم الوفاء وفيما أتصور أن هذه القطعة وهو في الأسر والعتاب موجه لسيف الدولة أما القصيدة فلم يشر لها شارح الديوان بأي تعليق، ولكنها تنبع من قلب عاش على وهج القطيعة فهو ينز بجروح دامية فتصور هذا الجرح في هذه الحروف التي نرسمها في هذه الصفحات.

لمْ يَنتَقِصْنيَ بُعدي عَنكَ من حُزُنٍ؛
هيّ المُوَاسَاةُ في قُرْبٍ وفي بُعُدِ

لأشْرِكَنّكَ في اللأوَاءِ إنْ طَرَقَتْ،
كمَا شَرِكْتُكَ في النّعمَاءِ والرّغدِ

أبكي بدَمعٍ لَهُ من حَسرَتي مَدَدٌ،
وَأستَرِيحُ إلى صَبْرٍ بِلا مَدَدِ

وتوالت على أبي فراس البلايا والفاجعات واحدة تلو الأخرى فنعي له موت شقيقة سيف الدولة وهي من لحمه وبنت عمه فضاعف موتها أحزانه ومصيبته وبطنت جوّه بضباب من الأسى فرثاها برثاء يسيل فيه قلبه ويسكب فيه جروحه، كان يخاطب

سيف الدولة بأدب فيه حزن ووفاء فإنه لم يتنقصه أو يغير أسره وبعده عن سيف الدولة وهو في القرب والبعد سواء لا تغيره الأحداث فهو يشاطره في أحزانه وأفراحه.

ومنها:

هّذا الأسِيرُ المُبَقّى، لا فِدَاءَ لهُ،

يَفديكَ بالنفسِ والأهلِينَ والوَلَدِ

ويختم قصيدته بجرح ينز نزيزاً حيث طال أسره وتعتريه حالة من اليأس لعدم تحرك سيف الدولة فقد مضى على أسرهِ سبع سنوات ومع ما اعتراه من يأس إلا إنه يفدي من أحب بنفسه وأهله وبنيه فقد بلغ أبو فراس في هذه الصورة قمة الوفاء.

بكَيتُ فلَمَا لمْ أرَ الدّمْعَ نَافِعِي،

رَجَعتُ إلى صَبرٍ، أمَرّ مِنَ الصّبرِ

وقَدّرْتُ أنّ الصّبرَ، بَعدَ فِراقِهِمْ

يُساعِدُني وَقْتاً، فعُزّيتُ عن صَبرِي

ولعلنا نتحاور مع الشاعر الأسير حسبما نستشفه من هذه القصيدة ومن صورها ومعانيها وبلاغتها إنها من الروميات وإن لم

يصرح بذلك شارح الديوان ولكنّ حرفها وصورها المأساوية تنطق بذلك، فإذا تصفحت سيرة أبي فراس وبطولته وقرأتها تخرج منها ببطولة فذة وشجاعة لا نظير لها فهي لا ترق ولا تعرف البكاء ولكن نراه في هذه القطعة باكياً لفراق أهله ولطول الأمد عليه في السجن وحتى لم يداعبه أمل في أفق الرجاء بإطلاقه من هذا السجن فصور في هذه القصيدة مأساته وتنفّس في جوِّها فأرسل الدمع لفراق أحبابه، فلما رأى دمعه لا يجديه ولا يخفف من ويلاته رجع إلى الصبر ولكنه صبر أمرّ من الصبر تعبير فيه زخم وبلاغة، فكان مصيباً عندما قدّر الصبر وتعزى به، وساعده ذلك الصبر ولو مؤقتاً ولكنه واساه وعزاه.

يا طِيبَ لَيْلَةِ مِيلادٍ، لَهَوْتُ بِها

بأحْوَرٍ، سَاحِرِ العَيْنَينِ، مَمكُورِ

وَالجَـوُّ يَنْثُرُ دُرّاً، غَيرَ مُنْتَظِمٍ

والأرضُ بارِزَةٌ في ثَوبِ كَافُورِ

والنّرجِسُ الغضُّ يحكي حسنُ منظره

صَفراءَ صافِيَةً في كأسِ بَلّورِ

ونعود لسهرتنا مع شاعرنا العملاق ونتحاور معه في ليلة

ميلاد طيبة وصفها ورسم صورتها في لوحة فنية، فهي عنده أطيب ليلة يتمتع بها وبفتاة جميلة عبَّر عنها بحوراء، وكانت ليلة ماطرة فهو يصف في صورتها الجوَّ وما تسكبه السماء وما يتمتع به من حسٍّ مرهف من الأزهار والنرجس ومن رقة تلك الكأس التي أثملته كما يصفها هو.

إن زُرتُ (خَرْشَنَةً) أسيراً
فَلَكَمْ أحَطتُ بها مُغِرا
ولَقَدْ رَأيتُ النار تَنْـ
ـتَهِبُ المَنَازِلَ والقُصُورا
ولَقَدْ رَأيتُ السَّبيَ يُجْـ
ـلَبُ نَحْوَنا حُوّاً، وحُورا
نَختارُ مِنهُ الغَادَةَ الـ
ـحَسنَاءَ، والظّبْيَ الغَرِيرَا
إن طَالَ لَيلي في ذُرا
كِ، فَقَدْ نَعِمتُ به قَصيرَا

وقد طالت سهرتنا مع أبي فراس وأخذنا التجول في هذه

السهرة فطوينا التاريخ حتى وصلنا معه حين طعن في فخذه واقتيد أسيراً جريحاً إلى خرشنة قبل أن ينقل إلى القسطنطينية فتذكر أيام جولاته وبطولاته في خرشنة حيث يدمرها جنوده عندما يفتحونها فيحطمون القصور ويأسرون الفتيات فهي ذكرى حلوة ولكنه اليوم في حياة مرّة ستعقبها ذكريات مريرات وهي أول فاتحة من رومياته من كتاب الأسر فنرسم منها خمسة أبيات وللقارئ الحكم عليها برؤيته كما له الرجوع لقراءتها كاملة في ديوانه ص ١٥٥.

أرَاكَ عَصِيَّ الدّمعِ شِيمَتُكَ الصّبرُ،
أما لِلهَوَى نَهْيٌ عَلَيكَ ولاَ أمْرُ

بَلى، أنَا مُشتَاقٌ، وَعِندِيَ لَوْعَةٌ،
ولَكِنّ مِثلي لا يُذاعُ لَهُ سِرُّ!

إذا الليّلُ أضوَاني بَسَطتُ يدَ الهَوَى
وَأذْلَلْتُ دَمْعاً من خَلائقِهِ الكِبْرُ

تَكادُ تُضِيءُ النّارُ بَينَ جَوَانِحي
إذا هيَ أذكَتْهَا الصّبَابَةُ وَالفِكْرُ

مُعَلِّلَتي بالوَصْلِ، والمَـوْتُ دُونَهُ،

إذا مِتّ ظَمْآنـاً فَلا نـزَلَ القَـطْرُ!

حَفِظْتُ وضَيّعْتِ المَــوَدّةَ بَيْنَنَـا

وأحسنَ، من بَعضِ الوفاءِ لكِ العُـذرُ

ومَا هَذهِ الأيّامُ إلاّ صَحَــائـِفٌ

لأحرُفِها، من كَـفّ كاتِبـها، بَشَـرُ

بنَفسِي مِنَ الغَادينَ في الحَيّ غَادَةً

هَـوَايَ لهَـا ذَنْبٌ، وبَهجتُـها عُذْرُ

ونريد الليلة أن نخترق الحجب لنصل لأبي فراس في زنزانته في القسطنطينية لنسهر معه وهو ينشد قصيدته العصماء التي هي لوحة من لوحات الفن وأعجوبة من عجائب الشعر وليته يسمع من وراء جدار التاريخ أم كلثوم سيدة الغناء العربي في عصرها وكأنها تعيد أيام عُرَيب المغنية او التي هام بها المأمون الحاكم العباسي او وحيد التي وصفها ابن الرومي بقصيدة طويلة ليته يسمع وهي تلحن أراك عصي الدمع وقد جودت في هذا اللحن فحرّكت به الصخور الصماء فضلاً عن القلوب التي ذابت، فهذه السيمفونية من قصائده الروميات التي ذاعت وشاعت وأصبحت في قمة الشعر

والبلاغة وفي الأداء الفني الذي يعجز عنه أكثر البلغاء إلا ما شذَّ منهم ونَدَر فهي قمة من القمم فلنتحاور معه في هذه السهرة.

افتتح سيمفونيته افتتاح الأبطال الذين لا يرخصون بالدمع فهو عصي الدمع ولكنّ شيمته الصبر والتجلد وهل كان للغرام والحب بصفته بطلاً عصي الدمع له سلطان عليه لكنّ أبا فراس يقر إقرار الوامق العاشق الذليل، فهو مشتاق وعنده لوعة، ولكنّ تلك اللوعة لا يذيع سرها بل يكتمها في قلبه، فتراه عندما يضويه الليل ويلقي ستوره يبسط يد الهوى والغرام ويخضع خضوع العبيد ويرسل دمعه فتأخذه العزة ولكنه دمع من خلائقه الكبر والترفع، ويوغل أبو فراس في هذه القصيدة ونار الحب تشتعل في قلبه حتى تكاد أن تضيء له، وهي بين جوانحه لهيب جاحم عندما تزكيها الصبابة والفكر، فينز به الحب فينعطف في رقة لحبيبته فيصفها بالدلال والتدلع والتعليل والتسويف حتى يزداد لهيباً وحسرة وشوقاً، وتعلله بالوصل فتفرخ أحلامه ولكنّ الموت دون الوصل فيأخذه الشوق أو اليأس فإذا مات ظمأناً فلا نزل القطر، وهذه أنانية الأبطال وفروسية الشجعان ونرسم هذه الصورة التي رسمناها من ظلال هذه القصيدة العصماء والسيمفونية الفنية وقد أوردنا منها بعض المقاطع، ونكتفي بهذه الأبيات وإن أراد القارئ أن يطلع على كامل هذه القصيدة العصماء فليرجع لديوان أبي فراس.

أيَـا أُمّـاهُ، كَم هَمٍّ طَـويـلٍ

مَضىَ بكِ لمْ يـكُنْ منه نَصِيرُ

أيَـا أمّـاهُ، كَم سِـرٍّ مَصُـونٍ

بقَلبِكِ، مَاتَ لَيسَ لَه ظُـهُـورُ

أيَا أُمّـاهُ، كَمْ بُشْرَى بقُـرْبي

أتَتْك، ودُونَها الأجَـلُ القَصِيـرُ

إلى مَـنْ أشْتَكي؟ وَلمنْ أُناجي،

إذا ضَاقَتْ بِمَـا فِيهَـا الصّدورُ؟

بِأيّ دُعَـاءِ دَاعِـيَـةٍ أُوقّـي؟

بِـأيّ ضِيَـاءِ وَجْـهٍ أسْتَـنِيرُ؟

بِمَنْ يُسْتَدْفَعُ القَدَرُ المُـوُفّى؟

بِمَـنْ يُسْتَـفْـتَحُ الأمْرُ العَسِـيرُ؟

نَسَلّى عَنْكِ: أنّـا عَنْ قَـلِيلٍ

إلى مَا صِرْتِ فـي الأخرَى، نَصِيرُ

ولا نزال نسهر مع أبي فراس ونسليه في أسره فنتحاور معه ونعزيه بفقد أمه وهو غريب الأهل غريب الوجه غريب الديار،

ونرسم ههنا مقطعاً ختم به مرثية أمه التي يذوب فيها قلبه وإحساسه ويلهب وجدانه الفقد والغربة والسجن والأسر، ففي خاتمتها زخم ودمعة مسفوحة من القلب وجرح ينز جروحاً تنبع من جروح، فهو يتحاور مع أمه في حسرة ولهفة وشوق لرؤيتها وهيهات لقد فرّق بينهم الموت الذي لا لقاء بعده إلا في الآخرة في خطاب وحرف يسيل رقة، فهو يصور قلبها أنه طفح بالهموم وسال بالجروح وليس له نصير أو مشفق ويستمر في خطابه لأمه بهذا الشعور الرقيق الذي بلغ فيه أبو فراس إلى قمة البلاغة، وضرب فيه الوفاء إلى والدته وإن كان ذلك قليل في حقها فالصورة ناطقة بالمآسي وينز فيها فؤاده نزيز الثاكل الحزين المجروح فعلى القارئ أن يتأمل هذه الصورة الفنية المأساوية.

وإذا تأملت أيها المفكر شعر أبي فراس لا تنتهي تلك الرغبة المشبوبة من القراءة لشعره وصوره التي رسم بها لوحاته على صفحات التاريخ، فهو يستحق أن أدرسه في كتابٍ مستقل يحلل هذه الشخصية وهذه الصور الناطقة بالسحر والفن، كما تعاملت مع الشريف الرضي والمعري وأبي نواس، وإن كنت قد كتبت عنه دراسة في كتابي الشعر ودوره في الحياة في العصر العباسي في الجزء الثاني من المجلد الأول ص ١٥٩، وهذا قليل في حق هذا الأديب الذي أثرى اللغة العربية وجدد ديباجتها وصورها وابتكر

فيها معاني لم يتطرق لها الماضون، فهي بنت أفكاره في أسلوب شعري كأنه يعيش في القرن العشرين أو الواحد والعشرين.

ونكتفي بهذا الحديث الذي أذعناه وكتبناه عن هذه النصوص التي تحدثنا فيها عن أبي فراس راجين من الله التوفيق والعون منه أن يقدرنا على إصدار كتاب خاص بحياة أبي فراس، وشكراً لربنا المنعم علينا بهذه النعم التي خولني إصدار هذه الإصدارات، فأعود فأشكره شكراً لا نهاية ولا إحصاء له

١٤٣١/٨/١٢هـ

٢٠١٠/٧/٢٤م

تصحيح خطأ ورده إلى الصحيح

إن الفكر الأدبي والثقافة في الإنسان تتطور وتنمو في عقل الإنسان عندما تتفتح أفكاره وتتغذى من نمير العلم والأدب، فتتفتح الأفكار كما تتفتح الورود لأضواء الصباح ولأشعة الشمس، فالعلم والأدب حياةٌ تسطعُ أنوارها وتنمو في ميدان الحياة بالنقد الهادف البناء، فالنقد حركة والحركة حياة وعدم النقدُ سكونٌ والسكون موت، وهذه التوطئه كتبتها لخللٍ حين قرأت في مجموعة مؤلفات العلامة الشيخ فرج العمران رحمه الله أحد أساتذتي الذي أولاني تقديراً وأعطاني مميزاتٍ، ومن ضمن هذه المميزات أنه كان يحمل مؤلفاته بنفسه ويزورني في بيتي ويقدمها لي هديةً فأخجل منه وأقول له، يا أستاذي أنا تلميذك فيجب على التلميذ أن يسعى إلى أستاذه ويزوره لا العكس، فاستمع إلى رد جوابه فإنه ينبع من خلق عظيم أنت أهل لذلك، وهو دائماً يشرفني بالزيارة ولعل ذلك في كل أسبوع أو أكثر أو أقل، هذه أخلاقٌ إسلامية روحية، والموضوع الذي أريد أصححه من تغليطي في بيت شعر

من قصيدةٍ لي رثيت بها أستاذي العلامة الشيخ فرج العمران وأردها إلي حقيقتها، وهو ما قرأتهُ لفضيلة الأستاذ السيد منير السيد عدنان الخباز سبط أستاذنا العلامة الشيخ فرج العمران في الكتاب المشار إليه آنفاً في قصيدتي التي أبنت بها جده العلامة العمران ننقل كلامه بالنص ص٣٧ جاء في هامشها هكذا ورد العجز مختل وزناً وليس كذلك يا فضيلة الأستاذ العزيز فالبيت.

هَبَّ مِنْ نومِهِ وفي أجفـانِهْ

بُقْيَةٌ من حيـاتِهِ في دنِـانِهْ

فهي بُقْيَةٌ بضم الباء تنوين ضم التاء، لا بَقية، وبُقْيَةٌ في البيت خلقت جواً شعرياً ما لم تستطع على خلقه كلمة بقيه وأعطته جرساً موسيقياً، وأنت لديك حسب ما عرفته من ذوق سليم من الندوات الفكرية والأدبية التي كنا نقضيها في ديوانية بيتي بحي البستان الشيء الكثير، ولو تكلف فضيلتكم بمراجعة ديواني كانوا على الدرب وقد طُبعت القصيدة فيه، ونشر في عام ١٤١٦هـ ١٩٩٥م منشورات مؤسسة البلاغ بيروت لما غلطني بهذا الغلط، والديوان كانوا على الدرب قبل أن تنشر الترجمة لجدكم بخمسة عشر عاماً، أو تكلفتم واتصلتم بي هاتفياً لما انكسر عظم البيت

وعاش سليماً صحيحاً، فأرجو من فضيلتكم بعد الإطلاع على التصحيح أن تصححوه في الترجمة لئلا يبقي واهي القوى مكسور العظم، وأرجو أن تتقبلوا ملاحظاتي في رد الغلط وتصحيحه للحقيقة والتاريخ.

١٤٣٣/٤/١٠ هـ

٢٠١٢/٣/٣ م

إلى ابن آوى

نشر في العدد السادس عشر السنة الثانيـة - رجـب ١٤٣٣هـ الموافق يونيو ٢٠١٢م

إن التاريخ حركة دائبة لا تعرف التفتير وتمر بفواصل زمنية وحياةٍ أممية، والتاريخ هو الحياة ولولا التاريخ لما اتصلت حلقات الحياة بعضها ببعض وفواصل شهورها وأيامها وساعتها ودقائقها لفقدنا بعض الحلق أو ضاعت سير لمفكرين وأمجاد لعظماء،.

وبرغم ذلك فقد همّش التاريخ أو بالأحرى المؤرخون من لم يحالفه الحظ فيلفه جدار العدم وراء المجهول ومن يحالفه التوفيق ويخلق منه بطلاً تاريخياً ليرفعه التاريخ من قزمة ساكنة في السفح إلى نصب يرفعه عالياً على قمة المجد، ولاسيما إذا مُزج التفوق بأصباغ من ألوانٍ مزدوجة في شخصية تساير الجمهور وتتفنأ في فنون ترضي مجتمعها وتعرف كيف تؤكل الكتف.

فلهذه العوامل التي كونت هذه الشخصية قد يحفل بها التاريخ فالتاريخ سجلٌ حافلٌ بالحياة بفوارقها وأضادها فتتصارع على محورها وفي نقطها المتحركات المفارقات وما فيها من ألوان متباينة ولولا التاريخ لما امتد لنا ما دار من أحداث على فواصله المتحركة منذ خلق الله الخلق وأسكنهم على هذا الكوكب

المسمى بالأرض ومنذ أوجد الله أبانا آدم وأسكنه وزوجه على هذا الصعيد.

وقصة قابيل وهابيل لا تزال يمثلها في قصة واقعية يقوم بأدوارها بعض الأبناء خلفاً عن سلف والتاريخ وثيقة وأمانة مقدسة في عنق كل مؤرخ يريد أن يكتب تاريخاً من فصل زمن عاشه وعاصر أحداثه ومر بها ومرت به تلك الأحداث المتباينة وأراد أن يسجل هذه الحركات التاريخية في سجل يقرأه المعاصرون والأجيال القادمة ويأخذون منه التجارب والعبر أو يطوي قرنه القهقرى فيرجع إلى القرون الماضية ويحبو في محراب التاريخ فيلملم من حركاته وفواصله الزمنية حروفاً يسجلها صفحات ملتمعة بالفجر أو مفحمة بالليل ليقرأها ويطلع بها في عصره وأن يكون المؤرخ يكتب للحقيقة والتاريخ لأهواء تربطه أو عاطفة تشده أو بغض يبعده أو رضاء يقربه، ففي الحب يبدي محاسن من يؤرخ عنه وفي البغض يبدي مساوئه، أو يكتب التاريخ لحفنة من ذهب أو إرضاء لمجتمع أو ما يمليه عليه بعض السلاطين فهذا ليس بمؤرخ وإنما هو جاء ليحرف التاريخ ويشوه صفحاته ويمسخ حقائقه إلى أساطير وخيالات لا تتصل بالواقع من قريب أو بعيد، إنما هي أحدوثة سميت تاريخاً ولا نزال نعاني من هذه الظاهرة منذ

أوجد الله هذا الخلق في هذا الكون الذي مَنّ علينا خالقنا بنعمة الوجود منه وأغدق على هذا الخلق بألوان النعم ﴿وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾.

ولا زال المؤرخون منذ فجر الإنسان الأول يسيرون في هذه المنعطفات المتعددة الأهواء والأهداف حتى يومنا وما انفكوا هذا لم يزالو ولا يزالون يتنكبون في تلك الطرق التاريخية التي أوضحناها آنفاً إلا قليلاً منهم الذين يكتبون للأمانة والحقيقة التاريخية، ولا نزال في عصرنا تفاجئنا مفاجئة من الذين يحاولون أن يكتبو تاريخاً عن أوطانهم أو يتعلموا فيكتبوا مقالة أو مواضيع شائكة أو تربو على ذلك الكاتب لأن ذاته لم تصل إلى ذلك المستوى أو ذلك الجو ليتنفس فيه فلا يستطيع لأنه هيض جناحاه فهوى من القمة إلى السفح، فأصيب بعقد نفسية تراكمة في نفسه فحولته إلى إنسان مغرور يعتد بنفسه وهو لا يعرف منشأ هذا الغرور والإقدام من تلك العقد التي مسخته وحولته إلى شخص كلما رأى شخصاً ظنه الساقي، وكلما رأى إناء ظنه قدحاً فهام بنفسه حتى رأى نفسه أنه المفكر الأول فغدت تلك العقد تتحرك في أفقه ألوان من الأطياف تشعله نقصاً وكرهاً فحاول أن يطمس فترات فكرية ويهمش شموساً من الذين أضاؤا وأشاعوا مصباح

الفكر في هذه الحركة الفكرية الجديده فكانو هم الذين وضعوا أول لبنة في هيكل الأدب الجديد بالمنطقة الشرقية في المملكة العربية السعودية ولا يزالون أصحاب مدرسة يقتبس من سمائها أضواء للمفكرين فيستنيرون بها في عتمة الحياة ويعيشون على مائدتهم أعشت من أعشة أبصارهم هذه الأنوار انحرفوا إلى منعطفات مظلمة في حركة لولبية لعلها تؤدي ولا تستطيع إقبار هذه الشموس وتطمس أضواءها وتلفها وراء جدار التاريخ ولكن الشموس لاينطفئ لهبها وتحرق ذراتها كل من أراد أن يعبث بها، فالشموس الفكرية لا ينطفئ من سمائها كوكب إلا ليسطع كوكب آخر لينير عتمة الحياة فيبدد تلك العتمة، ومحاولة إقبارها وتهميشها عبث كما يتخوف ابن آوى من فيئه عندما يسير في ظل ضوء القمر، ولا يستطيع أن يخرج تحت وهج الشمس بل يكتن في جحره فالذي يخاف من ظله كيف يواجه وهج الشمس فيعود القهقرى إلى جحره، ولكن نفسه الجبانة التي تسطو على الضعفاء خلسة في الليالي المعتمة حين لا ترى مستيقظاً عندما يطبق الكون جفنه ويغرق أهله في سبات عميق وتخيفه كل نأمة من الإنسان والحيوان هنا يحلو لابن آوى أن يصطاد فريسته فيسطو على أضعف حيوان من مخلوقات فاطر

السماوات والأرض الدجاج بعد أن يخنق الدجاجة لئلا تظهر لها نأمة فيستيقظ مالكوها فيخنقونه قبل أن يخنقها وعندما يفلت بفريسته وكثير ما يعود بهذا الظفر إن صح هذا التعبير لأنه يلبس الليل ستاراً ويأتي في تلك الهدأة متلصصاً، فعندما يؤوب أدراجه إلى جحره يخلق من نفسه بطلاً ظافراً فينسج من جُبنه وحياته التي يمارسها فيتصور له أنه قادر على إقبار الشمس والقمر وعندما يستيقظ على واقعه وحقيقته يعود إلى ماهيته الوجودية وينكمش على نفسه انكماش الظل ولا يستطيع أن يخرج من ذلك الجحر إلا في ظل تلك اللصوصية , ولا تساعده إمكانياتهُ أن يسير في ظل وهج الشمس وإن مر في ظل القمر يمر مرور الرعديد الخائف الذي يتلفت يمنة ويسرى وهو يخشى فيئه ويحذر منه فيتصوره شبحاً ليصطاده أو يقتله، مسكين بن آوى إذا ما خلا بنفسه طلب الطعن والنزال وصور نفسه بطلاً يخلق له مواهب وعبقرية يستلهمها من سماء عبقر، فينسجها قصصاً كما تنسج العنكبوت بيتها أو هي أضعف من ذلك ينسجها في تاريخ إن صح تسميته تاريخاً، من صور عواطف حب أو من حياة بغض أو من حياة منافعٍ لأشخاص يضربون له الطبول ويعزفون بين يديه الموسيقى أو رموز فكر يريد أن ينبت على جزعهم أو مصالح تربطه بمن غنى

له أو أغنيات من مواويل من أساطير شياطين كل بناء وغواص من غاصة البحر أو من ليالي ألف ليلة وليلة فيتيه في تلك الأجواء التي لايستطيع أن يحل رموزها بل لايفهم من يفك حروف معانيها، يابن آوى فإن الشمس والقمر هما الحركتان اللتان تتولد منهما الحياة ولولاهما لم تبصر ما ينفعك ويضرك فقد إبت في أوهامك وخيالاتك كفقاقيع طفت في الكأس وسرعان ما رسبت في القعر والتاريخ لايرحم،وحركته التي تتحرك ما دام شمسٌ وقمر فقد يولد من هذا الضوء مؤرخون أحرار لا يكتبون إلا للحقيقة والتاريخ ويمحون بيراعتهم الزيف والأصباغ التي صبغ بها بايع الضمير فتسطع من بين تلك الغيوم الحقيقة لأن الحق لا يضيع ولا يموت مهما تطاول الزمن بالمنحرفين والمزيفين، لتاريخ ولنا مرآة حكت هذه الحقائق وانعكس على ظلها الزيف صورة معكوسة وبدت على صفحتها صورة الحقيقة التاريخية فميزتهما تلك اليراعة الأمينة عن تلك الصورة المشوهة الزائفه، وهذه الظواهر التاريخية منذ تاريخ البشرية حتى يومنا هذا تطل علينا الوان من الكتب عن اليمين وعن الشمال بل من الجهات الست فنقرؤها فلا نجد في حروفها وفواصلها حقائق تاريخية وأمانة مرعية، إنما هي مسلسلات قام بها ممثلون مهرجون لم كن لهم طاقات فكرية ولا

مميزات اختصاصية تؤهلهم لمواضيع ما كانوا يسمح لهم ذلك الجو ليحلقوا فيه لأن الأوكسجين لا يساعدهم فيختنقوا فأنا أنصح أولئك بأن لا يطيرو في غير جوهم ولا يسفّوا في غير سفحهم كما أهديهم سلات من نجوم الصبر وسلات من الإختصاص

١٤٣٣/٦/١٣هـ

٤ /٢٠١٢/٥ م

ومضات من ليالي شهر رمضان

كانت تدور في آفاق نفسي فكرة أدبية ولدتها مطالعتي للشعر والكتب منذ زمن بعيد ولعله في ندواتنا الفكرية الأدبية مع سماحة العلامة الأستاذ المرحوم الشيخ عبد الحميد الخطي الخنيزي الذي أيقظ الحركة الفكرية في القطيف ونفخ في روحها بعد عودته من رحلته العلمية من النجف بعد موت أبيه حين همدت بموت باعث الحركة العلمية والأدبية الإمام الشيخ علي أبي حسن الخنيزي قدس الله روحه، وكانت المناقشة في الفكرة الأدبية في صالتنا الأدبية والعلمية في بيتنا في القلعة حاضرة القطيف ولعل التاريخ فوق السبعينيات هجري ألف وثلاثمائة قبل أن تنتقل الصالة إلى بيتنا في حي البستان وبعد فترة إلى حي الحسين، وهذه الخاطرة الفكرية الأدبية ظلت تلاحقني بعد أن تدارسنا مع ثلة من كوكبة نجوم الفكر التي سطعت في سماء القطيف وكان مفكرها الكبير الذي قاد هذه المسيرة العلامة الخطي مع الأستاذ الشاعر عبد الله الجشي وسماحة العلامة الشيخ عبد الله الخنيزي والشيخ حسن الخنيزي ابني الإمام الخنيزي

والأساتذة الشاعر عبد الواحد الخنيزي ومحمد سعيد أحمد الجشي والشاعر المؤرخ محمد سعيد المسلم وكوكبة أخرى لا أتذكرها لطول الفترة الزمنية ولكن هم رواد الفكر الجديد في القطيف الذين لمعوا في سمائهِ وكان نقاشنا في بيت للفرزدق يرتبط بظاهرة تاريخية سنشير لها حتى نصل إلى الحقيقة والحقيقة بنت البحث ونرسم البيت كما كنا نقرؤه حسب روايته في الأغاني إلى أبي الفرج الأصفهاني

ليس الشفيع الذي يأتيك مؤتزراً

مثل الشفيع الذي يأتيك عريانا

وبعد النقاش الطويل في هذا البيت والنزاع المحتدم باضطراب الفكرة ولا أتذكر البحث والمناقشة والمقدمات التي خرجنا من أفقها وأوصلتنا إلى مرفأ رسينا عليه بزورقنا الذي كنا نجدف عليه في بحر الفكر ولاحت لنا ومضة من ومضات العقل ولا أتخطر الومضة التي أضاءت لنا وأوصلتنا إلى الفكرة التي خرجنا بها من البيت وهل كان هناك خلاف ونزاع بين فريقين أو هو إجماع كوكبة الفكر هل كوكب من هذه الكواكب الذين أدرنا معهم البحث في تلك الصالة الأدبية بالقلعة حاضرة القطيف هل قال إنني وجدت رواية

ليس الشفيع الذي يأتيك مؤتزراً

إن الشفيع الذي يأتيك عريانا

أو هي نتيجة دراسة فكرية توصلنا إليها فأعجبنا بهذه النتيجة لما فيها من معنى بليغ سنعطيه شرحاً وافياً عندما نستكمل هذه الدراسة فللبلاغة أسرار تدق على مفكري البلاغة وقد لا نهتدي لها ولا نصل لأعماقها لأننا بشر ناقصون كلما جهدنا في التفكير وفي بلوغ مرامنا العلمي لا نصل إلى الأفق الكامل والعقل الإنساني المتكامل لا يزال في دور النقص والنسيان وتصدأ الذكريات وقد تموت ويعطّل فكره وهو على قيد الحياة والعاقل المفكر هو الذي يقول خرجت من دراستي للفكر والعلم بنتيجة فكرية أوصلتني بأني لا أعلم شيئاً، هكذا الإنسان في حياته وسكناته فهو فقير مطلق تحت ظل ربٍ غني مطلق يسير بإرادته وتنطفئ حركته بإرادته وهو لا يملك شيئاً من دنياه وتعجبني هنا مقولة المعري

لوكان لي أو لغيري قدر أنملة

فوق التراب لكان الأمر مُشترك

لقد ذهبت بك يا قارئي بعيداً لأدخلك في محراب من الرغبة والشوق لتجسيد الذكرى التي سأناقشها مع كوكبة من نجوم

سماء الفكر رواد صالتنا الفكرية الأدبية التي نوهنا باسمها سابقاً وهى في بيتي في حي الحسين فهذه الصالة أنشئت منذ زمن سحيق لها جذور منذ كنا نسكن في القلعة حاضرة القطيف التي أشار إلى تاريخها صاحب الفضيلة العلامة الشيخ جعفر محمد ملا حسن الربح في مقدمته لديواني إيحاءات سماوية وقد نشرت في مجلة الخط في العدد الثالث عشر السنة الثانية ربيع الثاني ١٤٣٣هـ الموافق مارس ٢٠١٢م فالنقاش الجديد في مضامين مفردات البيت مع استحضار صورته وربطه البلاغي دار النقاش في الصالة المذكورة في ليالي رمضان الشهر الذي هو أفضل الشهور وأعظمها وأكرمها ففيه تضاعف المغفرة وتعتق الرقاب من النار وذلك فيض وتفضل علينا من خالقنا، فقد دار النقاش في ليالي هذا الشهر الذي مر بنا وسرعان ما مضى عنا شهر رمضان المؤرخ عام ثلاث وثلاثين بعد الأربعمائة والألف هجري الذي بدأ صومه المبارك من يوم الجمعة العشرون من يوليو سنة ألفين واثني عشر ميلادي وانتهى في السبت الموافق الثامن عشر من أغسطس سنة ألفين واثني عشر ميلادي، وكلنا أسف عليه لما يضم بين صفحاته من معاني روحية وليالي قدسية يغسل الأرواح من الدرن والذنوب وتلك الليالي الفكرية الأدبية التي تجتمع في صالتنا الفكرية الأدبية في بيتنا في حي الحسين وتبدأ السهرة العلمية من الساعة

الحادية عشرة حتى الساعة الثانية من هزيع الليل فكانت ندوة تجمع كوكبة من نجوم الفكر والعلم والأدب تطيب السهرة وتحلو في نقاش مع هذه الكوكبة ونشير إلى بعض هذه النجوم كمثال لا على سبيل الحصر كأصحاب الفضيلة الشيخ محمد مهدي العصفور والشيخ ميثم منصور الخنيزي والأستاذ الكبير الأديب محمد رضا منصور نصر الله الصحفي اللامع وعضو مجلس الشورى والأستاذ حسن علي أبو السعود والأستاذ الأديب أحمد علي أبو السعود وهو قاموس للشعر والأدب والأساتذة الشيخ زكي الشيخ عبد الكريم الخنيزي ومحمد رسول الزائر والصحفي اللامع فؤاد عبد الواحد نصر الله صاحب منتدى حوار الحضارات ومجلة الخط وصاحب النشاط الأدبي الوطني والشاعر الأديب محمد رضي الشماسي وحسن نبيه محمد سعيد الخنيزي وأمثالهم من هذه الكوكبة وفي إحدى الليالي من تلك الليالي الوضيئة وما أشبه الليلة بالبارحة فقد أعيد نقاش تلك الأيام السالفة في هذه الليلة بيت الفرزدق ليس الشفيع إلى آخر البيت وكانت معركة فكرية صاخبة بين نظرتين مختلفتين نظرة قادها وتحمس لها الأستاذ أحمد أبو السعود وهو يلتزم بالروايات التي اطلع عليها في بطن الكتب وانضم معه الشيخ ميثم الخنيزي والشيخ محمد العصفور وأنا انفردت عنهم برؤياتي أخالفهم في

هذه النظرة وسأدلل على رؤيايا المنطقية التي قرأتها واستخلصتها من مفهوم القصة والشعر ولم أستند إلى الرواية التي وردت في الأغاني كما استندوا إليها فقد يعارضوني إننا ملتزمو بما روي عن الشاعر وكيف وهذه حجة لها وجهها ولكن أوجه لهم استفهاماً استنكارياً هل يسلمون أن جميع الروايات التي تروى في بطون التواريخ صحيحة لا جدال فيها أم فيها الصحيح وفيها المشكوك والمختلق؟، ولذا أسس علم معرفة الرجال ليتسنى للباحث درس السند ونص الرواية والراوي وبعد أن نرسم هذه القصة وننقلها بالنص من كتاب الأغاني مجلد ٩ ص ٣٢٧ وبعد قراءة القارئ لهذه القصة نبدي مرئياتنا حول البيت

ليس الشفيع الذي يأتيك مؤتزراً

مثل الشفيع الذي يأتيك عريانا

غنت في هذا البيت عريب خفيف ثقيل أول بالبنصر فبلغ ابن الزبير هذا فدعا النوار فقال:إن شئتِ فرقت بينكما وقتلته فلا يهجونا أبداً،وإن شئتِ سيرته إلى بلاد العدو فقالت: ما أُريد واحدةً منها قال فإنه ابن عمك وهو فيكِ راغبٌ أفأزوجه إياكِ قالت نعم فزوجه إياها فكان الفرزدق يقول: خرجنا متباغضين ورجعنا متحابين

كما ننقل مقطعاً تابعاً إلى القصة من ص٣٢٩،٣٣٠ من المجلد نفسه أخبرني أبو خليفة قال ابن سلّام قال أخبرنا إبراهيم ابن حبيب الشهيد قال قال ابن الزبير للفرزدق: ما حاجتك بها وقد كرِهتك كُن لها أكره وخلِّ سبيلها فخرج وهو يقول ما أمرني بطلاقها ليثبت عليها فبلغ ذلك ابن الزبير فخرج وقد استهل هلال ذي الحجة ولبس ثياب الإحرام يريد البيت الحرام فألفى الفرزدق بباب المسجد عند الباعة فأخذ بعنقه فغمزها حتى جعل رأسه بين ركبتيه وقال

لقد أصبحت عُرسُ الفرزدقَ ناشزاً

ولو رضيت رمح أسته لاستقرت

قال الزبير وهذا البيت لجعفر بن الزبير:

أخبرني أحمد بن عبد العزيز قال حدثنا عمر بن شبِّة عن محمد بن يحيي عن أبيه قال لما قال الفرزدق في ابن الزبير:

أمّا بنوه فلم تُقبل شفاعتهم

وشُفِّعت بنت منظور بن زَبَّانا

يا قارئي أضع القصة بين يديك لتقرأ نصوصها فهي كما هي مسجلة حرفياً في كتاب الأغاني وقد أشرنا للمجلد والصفحة التي

نقلت منهما حرفياً، فبعد قراءتك لهذه القصة تخرج من نصوصها أنها سيقت لهجاء ابن الزبير حيث إن زوجة الفرزدق النوار جعلت لها شفعاء وهم أبناء ابن الزبير لتخليصها من زواجها الفرزدق فلم تؤثر شفاعتهم ولم يستجب الزبير لهذه الشفاعة وإن كانت من أفلاد كبده ولكن النوار إنها أنثى وتعرف من أين تؤكل الكتف فدلتها أنوثتها على أن تستشفع بزوجة عبد الله الزبير لأنها مثار السحر فقدمتها شفيعاً لها فاستجاب الزبير لشفاعتها وحماها من الفرزدق فليس عند الفرزدق سلاح إلا الشعر وهو أفتك سلاح فهذا السلاح يهدم دول ويشيد دول لأنه كان في ذلك العصر هو أداة إعلامية تسير مع الشمس وكالضوء لا يحجبها مصرٌ عن مصر لأنها هي المقروء والمسموع والمرئي فهي تشبه في عصرنا التلفاز والصحافة المقروءة والمسموعة والمرئية فإذا درست هذه الصورة الملونة في هذا الحدث التاريخي نستخلص من البيت المروي على صورته

ليس الشفيع الذي يأتيك مؤتزراً

مثل الشفيع الذي يأتيك عريانا

مفهومه ومعناه أن الشفيع المؤتزر يشترك مع الشفيع العريان في المماثلة ويزيد عليه العريان كما تقول فلان أفضل من فلان

فاشترك الشخصان في صفة التفضيل و فضُل عليه الثاني والفرزدق لا يريد هذا المفهوم وهذا المعنى لأنه يريد الهجاء المر اللاذع فيكون البيت

ليس الشفيع الذي يأتيك مؤتزراً

إن الشفيع الذي يأتيك عريانا

فنلاحظ كيف ارتفع البيت في صورته البلاغية من السفح إلى القمة لأن المؤتزر لم يشارك العريان بل هنا إن جاءت لتأكيد تأكيد شفاعة العريان لا غيره ويؤيد هذه الرؤية البرهانية قول الفرزدق

أمّا بنوه فلم تُقبل شفاعتهم

وشُفِّعت بنت منظور بن زَبَّانا

وقد فهم ابن الزبير هذا المعنى حين ما ألفى الزبير الفرزدق عند باب الحرم عند الباعة فأخذ بعنقه فغمزها حتى جعل رأسه بين ركبتيه

وقال

لقد أصبحت عرس الفرزدق ناشزاً

ولو رضيت رمح أسته لاستقرت

فـإذا قـرأت هـذه الـصورة التـي قـام بـدورها ابـن الزبيـر مـع الفرزدق عند باب الحرم وإنشاده بيت جعفر بن الزبيـر علـى مـسامع الفرزدق بانت لك حقيقة البيـت إن موقـع (إنَّ) المؤكـدة بـدل (مثـل) أبلـغ وأقـدع فـي الهجـاء وأكبـر الظـن هـذا مـا أراده الفـرزدق وفهـم معناه ابن الزبير ويؤيده بيت الفرزدق أما بنوه إلى آخر البيت والـذي يدعونا إلى الشك لا وجد للبيتين في ديوان الفرزدق أمـا بنـوه ولـيس الشفيع فلما لم يثبتا في ديوان الفرزدق فصار مجـال لتلاعـب الـرواة في منطوق البيت الشعري ويؤيد ما ذهبنا إليـه إن البنـين المـؤتزرين لم تقبل شفاعتهم كما عبر عنهـا الفـرزدق وقبلـت شـفاعة العريـان، هـذه رؤيتـي فـي هـذا البحـث، والنقـاش مـع الأسـتاذ أحمـد علـي أبـو الـسعود والـكوكبـة مـن نجـوم سـماء الفكـر والأدب وبقيـة الأدبـاء ولـيس مرئيـاتي هـي فـرض وإنمـا هـي عـرض علـى مـسرح الفكـر ولـكل مفكـر رأيـه وبهـذه الأبحـاث تثـرى الحيـاة الفكـرية وتنمـو وتنبت النبات الحسن واختلاف الرأي لا يفسد للود قضية

١٤٣٣/١٠/١٦هـ

٢٠١٢/٩/٣م

من ليالي شهر رمضان

نشر في مجلة الخط العدد الرابع والعشرين ربيع الأول ١٤٣٤هـ فبراير ٢٠١٣م

أضيعُ العُمـرِ في فراغٍ عمـيـقٍ

كفَراغِ المُميتِ قَبـلَ المَـمَاتِ

ونُقضّي السَاعَاتِ في تافهِ العيشِ

ودنـيـاً مــن عــالـمِ التُرَّهــاتِ

نحـن الـشرقيين لا نقـدر الوقـت ولا نحـسب لـه حـساب، فهـو يقطعنا ودقات قلبنا تحصي علينا ثواني عمرنـا، فكل ثانيـة تمضي تـنقص مـن عمرنـا وتقربنـا إلـى الأجـل المحتـوم، وأخـص مـسلمي العرب فأكثرهم يغرقون في التفاهـات ويضيعون وقتهم، وعندهم ما يغنيهم ويملأ وقتهم ويسد فراغهم وهو الكنـز العظيم الـذي لـم يتحـصل عليـه أحـد مـن غيـر المـسلمين، فعنـدنا القـرآن العظـيم والتعـاليم النبويـة وأدعيتـه ومناجاتـه، وأدعيـة ومناجـات آل الرسـول الأئمة الأطهار إلى خالقهم، فكيف يمر بنا الوقت ونحن سادرون لا نحس بقيمة للوقت حتى يفاجئنا المـوت، ومـا جنينـا مـن هـذه الحيـاة خيـراً ولا زرعنـا لآخرتنـا وروداً وريـاحين وأنـواراً مــن الأعمـال

الصالحة تستقبلنا في قبرنا فتبدد عتمة القبر وتخفف عنا هول المطلع وعذاب القبر، ولكن المسلمين عندما يأتي الشهر العظيم شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن هدى للناس من البينات والفرقان يتحولون إلى حياة غير تلك الحياة، فيتقربون إلى خالقهم ويلبسون العبادة ويلازمون المساجد، وهذا رمضان عام أربعة وثلاثين بعد الأربعمائة والألف الهجري الموافق العاشر من شهر يوليو من العام الثالث عشر بعد الألفين ميلادي، قد هبط علينا كما يهبط الطل في ثغر الزهور في حر الصيف، أو كما يهبط الماء العذب على كبد الصديان، فيشرق بأنواره في قلوب المؤمنين فيفرحون به لما يتحصلون عليه من إثابة وأجر من خالقهم، فقد أعلن الخاتم ﷺ بفضله وموقعه من الشهور، وما بعد وصف الخاتم وصف فهو أفضل الشهور ولياليه أفضل الليالي وأيامه أفضل الأيام وساعاته أفضل الساعات ونومكم فيه تسبيح، وهذا بعض من وصف الخاتم ﷺ له، فكيف بنا بشهر فيه ليلة أفضل من ألف شهر هي ليلة القدر.

وهذه التوطئة والوصف لهذا الشهر العظيم أتحدث عن نفحاته التي ينفحني بها في كل عام، فمنذ بداياته تتحول ديوانيتي في بيتي من جلسة العصر إلى جلسة الليل، والذي أريد أن أتحدث عنه

وأذيعه عن ما ننفقه من ساعات ليالي رمضان المبارك هذا العام عام أربعة وثلاثين بعد الأربعمائة والألف هجري، حيث تتجدد في كل عام منه الحركة العلمية وتزدهر، ففي كل ليلة تتولد مسائل علمية وأدبية فترى الحركة العلمية فيه تتحرك لا ترى لها تفتير، فهى آخذة في حركتها الدائبة والمزدهرة ونشاطها العنيف، وكان محور هذه الحركة أو بالأحرى الركائز الذين ترتكز عليهم الحركة العلمية والأدبية كاتب هذا المقال وسماحة العلماء والأساتذة الأدباء وهم الشيخ جعفر الربح، الشيخ محمد العصفور، الشيخ ميثم منصور الخنيزي، الأديب أحمد أبو السعود، الأديب والصحفي محمد رضا نصر الله وابنيا المهندس أديب، والدكتور وديع، الأديب محمد رسول الزاير، الأديب حسن علي الزاير، والأستاذ أحمد القطان، الشيخ حسن نبيه الخنيزي وبقية الجلاس الذين يدلون بدلوهم في هذه الحركة، ولضيق المقام عن ذكر أسمائهم فأستميحهم العذر والعذر عند كرام الناس مقبول، لأن هذه الصفحات لا تتحمل أكثر مما ذكر لأنها محدودة بورق وصفحات.

وهذه الجلسة الرمضانية بدأ تاريخها في بيتي في القلعة حاضرة القطيف سابقاً وأنا لم أتجاوز السادسة عشر من العمر،

وقد أشار لها العلامة فضيلة الشيخ جعفر الربح في مقدمته التي كتبها لديواني إيحاءات سماوية فأغرقني بالثناء عليَّ.

والذي أريد أن أشير له في هذه الجلسات ما أثرته من إثراءات من آراء ولدتها مناقشات فكرية علمية من هذه الحركة التي تدور في أفق متلون الاتجاهات في قواعد النحو وآراء علماء النحو، وعلى صعيد الفقه والأصول وتارة في الفلسفة أو الصرف ومناقشات في اللغة العربية، ولا تنسى دور الأدب والشعر فله في هذه الحركة والمناقشة دور كبير، ولا أريد أيها القارئ أن أعرض لك حصيلة كل ما دار في أفق ثلاثين ليلة، لأنه مستصعب عرضها وتحتاج إلى سفر ذا صفحات طويلة، ولكن من أجل الفائدة وعدم السأم في طول عرض المسائل نعرض لك مسألتين علميتين من تلك.

- المسألة الأولى لماذا نقدّر المتعلق بالظرف أو جار المجرور بكَان التامة وعللنا عدم تقديرها ناقصة، لأنك لو قدرتها ناقصة احتجت إلى تقدير كان أخرى، وهكذا يلزمك الدور والتسلسل والدور والتسلسل ممنوع منطقياً وعقلياً، وأشرنا إلى بيت محمد بن مالك من ألفيته وشرحناه وهو تعريف النكرة

نكـرة قـابـلُ أل مؤثـره

أو واقعٌ موقعِ ما قد ذُكرا

وقد أشرت لهما وشرحتهما في كتابي أيام في لندن الطبعة الأولى ١٤٣٤هـ ٢٠١٣م دار المحجة البيضاء، عندما تناقشت مع العلامة السيد عبد الصاحب الخوئي في مكتبه في مؤسسة الإمام الخوئي في مدينة لندن.

- المسألة الثانية ما كان له الصدارة في الكلام مثلاً كالاستفهام والنفي فإنهما لهم الصدارة في الكلام، واختلف علماء النحو ما كان له الصدارة هل يعمل ما بعده في ما قبله، فبعض منهم يحظره وبعض منهم يجيزه، ولي رأي استخلصته في مَن يجيز إعمال ما بعد الذي له الصدارة في اسم الاستفهام كمثل كَم أهلكنا، قالوا إن كَم مفعول به لأهلكنا، وهذا معناه تقدم العامل على المعمول، ولعلهم يريدون بهذا التقدم تقدم معنوي لا تقدم لفظي والله أعلم، كما أن علماء النحو يختلفون في عدم تقدم المعمول على ما كان له الصدارة، وتوسعوا فأجازوا الظرف والجار والمجرور كمثل الآية الكريمة ﴿بِأَيِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتۡ﴾ سورة التكوير الآية ٩، وبكم درهم اشتريت، كما اختلف علماء النحو هل يعمل ما قبل النفي والإستفهام فيما بعدهما؟ وهل ينافي الصدارة أم لا؟ فبعضهم حظر العمل وبعضهم أجازه، واحتدم رأي النحويين في هذه الآية الكريمة: ﴿أَلَمۡ يَرَوۡاْ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّنَ ٱلۡقُرُونِ أَنَّهُمۡ إِلَيۡهِمۡ لَا

يَرْجِعُونَ﴾ سورة يس الآية ٣١، في (كَم) أجاز ابن هشام في كتابه مغني اللبيب أن (كَم) معمولة لأهلكنا مفعول به لأهلكنا، فمعناه أنه يجيز أن يعمل الواقع بعد ما له الصدارة في الاسم الذي له الصدارة كما مثلنا بكَم وأهلكنا.

ونفسر رأيه ما كان له الصدارة كأنه جزء من العامل الذي يقع بعده فكأنه جزء منه لا يتجزأ لارتباطه به وتفسيره للمعنى، لأنها لا تفيد كَم بوحدها إنما تفيد عندما ترتبط بالجملة، فهنا الآية الكريمة تشير إلى الاستفهام التقريري لا الاستفهام الواقعي، ومعناه قد أهلكنا قبلكم من القرون، وهذا التفسير على من يرى أن كَم استفهامية فيكون استفهام تقريري، أما من يراها كَم خبرية فتختلف في المعنى ويكون التفسير كثير من القرون ما أهلكنا على سبيل الإخبار الواقعي.

أما رأي من لم يجز عمل ما بعد الاستفهام فيما قبله فيرى أنه يخالف الصدارة التي أعطيت الاستفهام أو النفي، وهناك رأي لبعض علماء النحو حيث يحظرون أن يعمل بعض الشيء في الشيء نفسه، كما منعوا حروف المضارعة وهي نأيت أن ترفع الفعل المضارع لأنها جزء منه، وقد نرد عليهم في كم أهلكنا عندما أجزنا العمل أنها تختلف عن حروف المضارعة فإن كم وأهلكنا ليست كم حرفاً من

أهلكنا، إنما هما جزآن تركب منهم الكلام، وهذه الآراء العلمية كلها جاءت تعليلاً بعد الورود، فالعربي الفصيح الذي لا يلحن ينطق بالطبيعة الفاعل مرفوعاً والمفعول منصوب، وهكنا بقية الكلمات التي ترد على لسانه ولا يعرف العلة إنما هو سليقي ينطق فيعرب، وقد أشرت آنفاً إلى رأي إرتأيته في تفسير من أجاز من له الصدارة أن يعمل ما بعده فيما قبله، وقلت هذه الإجازة معنوية لا لفظية.

وهذه الليالي المباركة التي كلها خير وبركات يفيضها علينا هنا الشهر العظيم، وألخص هذه الجلسات في تلك الليالي الروحانية الضوئية، هي مائدة من موائد العلم والفكر عليها أطباق من ضروب ألوان العلم والفكر والأدب والفقه والمنطق والأصول محدقة بها كوكبة من نجوم العلم تقبس ما شاءت منها، ولا نريد أن نطيل بحثنا ونكتفي بما رسمناه عن هذه الليالي وما يدور في أفقها.

وأسأل الله من فضله ورحمته أن يعودنا على أمثال تلك الليالي المقمرة المزانة بالإيمان والتقوى إلى شهر رمضان القادم في سلامة من ديننا وأبداننا، ثم العود فالعود برحمته وتفضله والمنة له وهوالقادر على كل شيء

١٣/١٠/١٤٣٤هـ

٢٠/٨/٢٠١٣ م

السِّيرة الذَّاتيَّة للمؤلِّف

الاسم

محمَّد سعيد ابن الشَّيخ عَلِيٍّ بن حسن بن مهدي الْخُنيزيُّ

تاريخ الميلاد

٢/٢/١٩٢٥م.

العنوان

المملكة العربية السُّعودية

المنطقة الشَّرقية – القطيف

الرمز البريدي: ٣١٩١١

ص. ب: ٨٧٩

تليفون – فاكس: ٨٥٥١٠١٣/جوال/٠٥٣١٠٢٦٠٩٩

" محمَّد سعيد الشَّيخ عَلِيٍّ أبو الحسن الْخُنيزيُّ "

موجز السِّيرة الذَّاتيَّة

ولدتُ فِيْ اليوم والشهر مِنْ العام الَّذي حددتُ تاريخه بالميلادي، فِيْ الصفحة الأُولى من هذه السِّيرة، ودرجتُ على هذا الكوكب تحت رعاية والدي الشَّيخ علي أبي الحسن الخنيزي.. الَّذي كان مرجعاً وقاضياً لجميع المذاهب مِنْ سنة وشيعة.. ويرضون بحكمه، أُصبتُ فِيْ السادسة مِنْ عمري تقريباً بأثمنِ كنزٍ فِيْ حياتي، وهيَ عيني، الَّتي تعكسُ طبيعة الحياة، ومناظرها الجميلة.

وعندما بلغت السابعة مِنْ عمري، أدخلني أبي الكُتَّاب.. لأنَّ ذلك الظَّرف لا توجد فيه مدارس على منهجية المدارس الحديثة اليوم، وكان هذا الكُتَّاب قمَّة الكتاتيب فِيْ ذلك العصر، ويديرانهُ ويتعاقبان عليه الأخوان فضيلتا الشَّيخ / محمد صالح البريكي صباحاً، وأخوه الشَّيخ ميرزا مساءً، وهذا الكُتَّاب يُعلِّم كتاب الله، ونمطاً مِنْ الخطِّ، وضرباً مِنْ أنواع

الحساب، ويسمى بالجمع والطرح والضرب والقسمة، الَّذي هُوَ بعض دروس الرِّياضيات اليوم، كما يعطي لوناً مِنْ الشِّعْرِ العربي، ويشرح بعض كلماته، ويطلب مِنْ الطُّلاب حفظ ذلك الشِّعْرِ، وللكُتَّاب أسلوب ومنهجية فِيْ دفع الأجورِ، وأيَّام التَّعليم طيلة الأسبوع، والإجازة يومي الخميس والجمعة، ولا تتخلَّل الدِّراسة فسحات يرتاح فيها الطُّلاب مِنْ جهدِ الدِّراسة.

وقَدْ خرجت مِنْ هذا الكُتَّاب بعد أنْ اجتزت مراحله التَّعليميَّة، وتعليمي كان غيبياً عَنْ طريق الحفظ القلبي.. لا البصري، خرجت مِنْهُ وأنَا ابلغ الثَّالثة عشرة، وبعد فترة هيأني والدي للدِّراسة، لأتخصص فِيْ العلوم الدِّينية، فدرست قواعد اللُّغة العربية، ومِنْ كتبها متن الأجرومية وشرحه لذحلان، وقطر الندى لابن هشام، وألفية ابن مالك، والمغني لابن هشام، كما قرأت بعض الكتب العقلانية والفلسفية، كالحاشية في المنطق، والشَّمسية في المنطق، وقرأت كتب البلاغة، كالمطول ومختصره، وهو يبحث في أسرار البلاغة، ويوضِّح لك سرّ البلاغة والنكت الَّتي تحتوي عليها، كما قرأت شريحة من كتب الفقه، وكتباً من أصول الفقه.

وفوجئت وأنا في ربيع الدِّراسة، وقبل اليفاعة بموت والدي فكان لموته انحسار، كانحسار الرَّبيع عَنْ الورد، فأصبحت كالحقل

الَّذي جفَّ ماؤه، وبرغم ما عانيته من الثالوث غير المقـدس « الفقـر - وأصابتي بالعين - وفقد أبي» واصلت دراستي العلميـة، وكنـت أقتـل أوقاتي فيْ الدروس، كما أنني أدرس ثلَّة منْ الطلاب، سنشير لهم فـي الصَّفحة المخصَّصة لهم.

وإنَّني إذ أختصر هذه الأحرف، فقَدْ وضعـت سـيرتي الذاتيـة فـي كتابٍ، يتكوَّن من مجلـدين أسميته «خيوط من الـشَّمس» يحتـوي هـذه الحياة البسيطة، وما عانيت مِنْ حلوٍ ومرٍّ، ومررت فيه بقنوات تاريخية تمـر بحياتي الذَّاتية، أو ما يتصل بقنوات تاريخية لها ارتباط من قريـب أو بعيـد بهذه السِّيرة.

أمَّا الوظائف:

فلم ألتحق بوظيفة من الوظائف، إنَّما امتهنت عملاً حرّاً غيـر مـرتبط بدائرة، أو مؤسسة، وهو المحاماة، وهيَ المرافعة فِيْ القضايا، الَّتي تنظر فيها المحاكم الشَّرعية.

أبرز المواقف

لقَدْ مررتُ في هذه الحياة بمواقف مؤلمة، ومفرحة، ولكن في رأيي أخطر موقف مررت به.. واتخذت فيه قراراً حاسماً، بعد أنْ مرَّت عاصفات من التردد بأفق نفسي، وحيرة تكتنفها شكوك من الضَّباب، ولكني في النهاية أصدرت قراري النهائي، وتركت دراستي العلمية لأنزل إلى ميدان العمل «المحاماة» مِنْ أجل الكسب على عيالي، لكي لا أعيش عالة على المجتمع.

الأساتذة

الأسـاتذة الَّذين تتلمذت عليهم، هم: والدي الإمام الشَّيخ / علي أبـو الحسن الخنيزي، والعـلَّامتان الشَّيخ / عبد الحميـد الـشَّيخ علـي الخنيـزي الخطي، والشَّيخ / فرج العمران، والعلاَّمة الشَّيخ / محمَّد صـالح المبـارك، والشَّيخ / محمَّد صالح البريكي، وهؤلاء العلماء كلهم من أهالي القطيـف، ولكن أستاذي الَّذي أعتبره كالجامعة من النقطة الأولى إلى المرحلة العليا، هُوَ والدي.. فهو لي كجامعة من المعارف.

أبرز التلاميذ

إنَّ التلاميذ الَّذين درسوا على يدي كُثْر، لعلَّهم يصلون إلى خمسين طالبًا، أو يزيدون.. غير أنَّ مِنْ أنجحهم وأبرزهم فضيلة الأُستاذ العلَّامة الشَّيخ / عبد الله الشَّيخ علي الخنيزي، حيث أسهم فِيْ الحياة الفكرية بثروة ثرة، في حرفٍ في كتبٍ متعددة الألوان.. خدم بها اللُّغة العربية والفكر، والشَّيخ عباس المحروس حيث أصبح خطيباً، وعبد الغني أحمد السنان، حيث أصبح أحد الشَّخصيات البارزة في شركة أرامكو السُّعودية، ومحمَّد سعيد الشَّيخ محمَّد علي بن حسن علي الخنيزي، أصبح شخصية من الشَّخصيات الوطنية بالقطيف، ومهنا الحاج حسن الشماسي، ومحمَّد رضا نصر الله، حيث أصبح صحفياً غير محدود، وفؤاد عبد الواحد علي نصر الله، حيث صار صحفياً، ومحمَّد وحسن أبناء الشَّيخ فرج العمران، وجاسم ابن أحمد بن إبراهيم بن حسن آل خضر، وجمال عبد اللطيف وحسن أحمد الطويل، وهناك طلاب آخرون إنَّما لا تسع هذه الصَّفحة لذكرهم.

السيرة العلمية

إنَّ سيرتـي العملية: كانت تنبثق عَنْ عملٍ حـرّ - وهـيَ المحامـاة - فإنَّنـي لَمْ ألتحق بوظيفة في القطاع الخاص.. أو العامٍ.. على حد سواء، إنَّما استعملت معارفـي العلمية في المحاماة، وصـرت لا أقبل مرافعـة قضيـة، إلاَّ بعد دراستها، ومعرفـة وسائل حججها ووثائقهـا، فـإذا طبقتهـا حـسب معرفتي على القواعد الشَّرعية، وبان لي موافقتها على ذلك قبلتها، وترافعت فيها، ومن أجل ذلك كسبت أكثرها بفضل الله وتوفيقه.

رؤية ودراسات

لا بُدَّ من إشارة مقتضبة: لما قام به المفكرون والأدباء من دراسـات عميقة عن أعمالي الأدبية، وقد أشـير لبعـضها فـي مقدمـة ديـوان مدينـة الدراري، الدراسة الَّتي كتبتها البنت فردوس، والدِّراسة الَّتـي فـي مقدمـة كانوا على الدرب، للدكتور/ حسام سعيد سلمان العبـد الهـادي الحبيـب،

ودراسات متفرقة، لم يجمع شتاتها فِيْ كتيب يبقى رصيداً ومرجعاً، لمن أراد الدراسة عن هذه الأعمال، وهذه الدراسات نشرت على صفحات الصُّحف الداخلية والخارجية، وفي كتب كثر، كما أذيعت حلقات دراسية من إذاعات عربية.. وغير عربية، ومن راديو المملكة من جميع محطاتها، ومن راديو لندن في رياض الشّعْر، وأكثرها أشير لها في كتاب «خيوط من الشَّمس» كما شاركت في عدَّة ندوات فكرية وأدبية، أبرزها مؤتمر الشعر في الخليج الذي أقيم في مدينة الرياض تحت رعاية رئيس رعاية الشباب الأمير فيصل بن فهد عام ثمانية بعد الأربعمائة والألف هجري وآخر ندوة الَّتي أقامها لي النَّادي الأدبي بقاعة الجمعية الخيرية بالقطيف، في عام ١٤١٩هـ وأقام النادي نفسه ندوة أسماها بعيون الشعر ألقيت فيها قصيدة على كف عفريت كما تم تكريمي من وزير التعليم العالي الدكتور خالد العنقري بصفتي أحد الرواد مع ثلة من رواد المملكة في معرض الكتاب بمدينة الرياض تحت رعاية خادم الحرمين وقد حضر عنه بالنيابة الأمير سطّام وقد صدر كتاب عن الرواد يتضمن نبذة من حياتهم مع صورهم الشمسية، كما منحوا شهادة تقدير من الدكتور خالد وزير التعليم العالي وجائزة (درعاً وكأساً) كتب عليهما اسمي.

تكريمي عن طريق منتدى حوار الحضارات
برئاسة/الأستاذ فؤاد عبد الواحد على نصر الله

نشر هذا التكريم مع قصيدة مهرجان البيان التي ختم بها الشاعر وحيا بها المحتفلون في ذلك الحفل في ملف خاص بمجلة الواحه العدد الحادي والستون السنة السابعة عشر ربيع ٢٠١١

فهذا المنتدى له نشاط فكري طار صداه فملأ آفاق المملكة ذكراً ومجداً وقد سبق أن احتفل بي ايضاً وكرمت في النادي الأدبي للمنطقة الشرقية بمدينة الدمام، كما أقام لي النادي السابق ذكره أمسية شعرية في مقر جمعية القطيف بمحافظة القطيف وكرمت على صعيد أفق عالمي مع رواد الفكر والمؤلفين السعوديين وقد قام بهذا التكريم معالي وزير التعليم العالي الدكتور / خالد العنقرى وقد اقترن هذا التكريم مع افتتاح معرض الكتاب الدولي بمدينة الرياض برعاية خادم الحرمين الشريفين الملك عبد لله بن عبد العزيز آل سعود ولم يكن أحد من المنطقة الشرقية سواى وعبد الرحمن العبيد وحين ذاك كان رئيس النادي الأدبي والرواد من المنطقة الوسطى والغربية وبعد تكريمنا قام سمو الأمير / سطام نائب أمير الرياض

بتوزيع الهدايا علينا نيابة عن خادم الحرمين الشريفين، كما أصدر كتاب يتضمن حياتنا باختصار اسمه (الرواد للمؤلفين السعوديين).

وقد شاركت مشاركة فكرية أدبية بدعوى رسمية بناء على طلب سمو الأمير / فيصل بن فهد الرئيس العام لرعاية الشباب، بخطاب رقم ٧٢٦٤ وتاريخ ١٤٠٨/٤/٢٩هـ بقصيدة شعرية والتي ألقيتها بنفسي وقد أسميتها في ظلال عكاظ في مهرجان الشعر العربي لدول الخليج في جلسة الافتتاح الذي أقيم بقاعة الملك فيصل للاحتفالات بمدينة الرياض بتاريخ ١٤٠٨/٦/١٥هـ وهو أول مهرجان فكرى يقام من نوعه في الخليج، وكان لها الصدى العميق في الأوساط الفكرية والأدبية واستعيدت أبياتها عدة مرات.

الإذاعات التي أذاعت عن أعمالي الفكرية والأدبية

كما أذاعت شعري الإذاعات العالمية كإذاعة لندن، وإيران وغيرها من الإذاعات العربية كإذاعات القاهرة والكويت والبحرين كما احتفلت بها جميع محطاتنا الإذاعية بالمملكة العربية السعودية.كما نشرت أثاري في أمهات الصحف الكبرى كمجلة الأديب، المعارف والألواح والعرفان اللبنانيات ومجلة الكتاب للأستاذ عادل الغضبان في القاهرة والهاتف والغري العراقيتين والرائد والعربي الكويتيتين ومجله صوت البحرين وغيرها من المجلات والصحف العربية وفى أكثر صحف المملكة العربية السعودية كاليوم وأخبار الظهران ومجلة الواحة ومجلة الخط. وقد كَتَب عن إصدارات كتبي وأشعاري مفكرون ودكاترة كثر أشرتُ لبعضهم هنا وبعضاً في خيوط من الشمس، وشريحة من مفكري القطيف إما تكريمي في وطني القطيف فهذا أول تكريم لي يسبق به الولد العزيز الأستاذ / فؤاد نصر الله أحد الوطنين وكان له السبق والشكر وقد نجح هذا التكريم فكان له صديً في أوساط الآفاق الفكرية على صعيد المملكة وكان التكريم ليلة

الجمعة في الثاني والعشرين من شهر شوال سنه واحد وثلاثون بعد الأربعمائة والألف الموافق ثلاثين تسعة سنه ألفين وعشرة، وقد تسابق وتبارى في منتدى التكريم المفكرون والأدباء والشعراء فكان الذي يدير حفل التكريم الأستاذ/ محمد بن ميرزا الغانم فأبدع وأجاد في إدارته وفي أسلوبه الأدبي الرفيع.

ومن الشعراء الذين اشتركوا في هذا المهرجان الأساتذة :

مصطفى أبو الرز، علي مهنا، وأحمد أبو السعود، وفريد النمر، محمد مهدي الحمادي.

ومن الكتاب الأساتذة:

خليل آل فزيع، سعود الفرج، محمد الشماسي، عدنان العوامي، أحمد الشمر، فؤاد نصر الله رئيس منتدى حوار الحضارات، عباس الشماسي رئيس الجمعية الخيرية بمحافظة القطيف، سعيد أحمد بن ناجي أبو السعود والكاتب في جريدة اليوم عبد الله بن أحمد شباط.

وختام الحفل ختمته بكلمات فيها شكر لصاحب المنتدى الفكري وللمفكرين والشعراء والأدباء وإلى كل من شارك في الحفل وحييتهم بقصيدة منبعثة من قلبي تحية وشكر لأصحاب البيان والفكر والتي أسميتها مهرجان البيان.

وكان لهذا التكريم أصداء فكرية وأدبية انعكست على المسموع والمقروء والمرئي فغطت الصحف هذا الموسم التكريمي كصحيفة اليوم والوطن والحياة وصحيفة الوسط البحرانية في العدد ٢٩٥٥ وغيرها من الصحف المحلية والخليجية، والشبكة العنكبوتية وعلى صعيد مواقعها المختلفة وفي طليعتهم منتدى حوار الحضارات، راصد وشبكة التوافق وغيرها من المواقع الإلكترونية كما اشترك التلفاز السعودي فزارني في بيتي وأجرى معي حواراً عن التكريم وعن حياتي الأدبية والفكرية في يوم الاثنين ١٤٣١/١٠/٢٥هـ الموافق يوم الرابع من شهر أكتوبر عام عشرة بعد الألفين وأذيعت هذه المقابلة مساء الأربعاء سبعة وعشرين من الشهر المشار إليه والعام المذكور الموافق ستة أكتوبر من العام المشار إلية وأعيدت الحلقة في مساء ليلة الخميس الساعة الثانية والعشر دقائق وقد بقيت أعمالُ فكرية وأدبية لم تُلقى حيث لم يتسع لها الوقت وتم تقديم الاعتذار لهم.

الكتاب الذين كتبوا عن أعمالي

أريد أن أثبت هنا بعض المفكرين الذين اهتموا وكتبوا عن بعض أعمالي الفكرية وليس على سبيل الحصر وإنما نذكر شريحة منهم وهي كسجل أو فهرست لهذه الأسماء وهي:

اسم المؤلف	اسم الكتاب	اسم المطبعة	الطبعة والتاريخ	رقم الصفحة
د/ بدوي طبانة	من أعلام الشعر	دار الرفاعي/ الرياض	ط١-١٤١٢هـ	٣٢٧
الشيخ عبدالله الخنيزي	نسيم وزوبعة	القاهرة	ط١-١٣٩٧هـ	٢٣١
د/ بكري شيخ أمين	الحركة الأدبية في المملكة العربية السعودية	دار صادر - بيروت	ط١-١٣٩٣هـ	٣٨٥
الأستاذ/ محمد سعيد المسلم	واحة على ضفاف الخليج	مطبعة الفرزدق - الرياض	ط٢-١٤١١هـ	٤٠٥
الأستاذ/ محمد سعيد المسلم	هذه بلادنا	مطابع جامعة الملك سعود	ط١-١٤١٠هـ	٢٣٠
الأستاذ/ محمد سعيد المسلم	ساحل الذهب الأسود	دار مكتبة الحياة - بيروت	ط٢-١٣٨٢هـ	٢٤٧

الأستاذ/ عبد الله عبد الجبار	التيارات الأدبية الحديثة في قلب ج	جامعة الدول العربية	ط١-١٩٥٩م	٢٨٩
الأستاذ/ عبد الله أحمد الشباط	أدباء من الخليج العربي	الدار الوطنية ـ الخبر	ط١-١٤٠٦هـ	٢٧٤
د/ عبد الله آل مبارك	الأدب العربي في الجزيرة ق١	مطبعة الجبلاوي القاهرة	ط١ـ١٩٧٣م	٣٦
د/ عبد الله الحامد	الشعر المعاصر في المملكة العربية السعودية	دار الكتاب السعودي	ط١ـ١٤٠٦هـ	٨٢
خليف بن سعد الخليف	الاتجاه الإسلامي في الشعر الحديث	مطبعة سفير ـ الرياض	ط١ـ١٤٠٩ هـ	٨٩
د/ عمر الطيب الساسي	الموجز في تاريخ الأدب السعودي	مطابع سحر ـ جدة	ط١ـ١٤٠٦ هـ	٢٤٤
عبد العلي آل سيف	القطيف وأضواء على شعرها الحديث	مطابع الفرزدق ـ الرياض	ط١-١٤٠٦ هـ	٣٠٠
عبد الرحمن العبيد	الأدب في الخليج العربي	النشاط الثقافي ـ الرياض	ط١ـ١٣٧٧ هـ	٥٨
د/ شيخ عبد الهادي فضلي	في جريدة اليوم عدد (٢٥٠)		١٣٨٨ هـ	

الأستاذ/ الخياط	في البلاد السعودية			
د / شفاء عقيل	دراسة عن الشعر الرومانسي	رسالة ماجستير		
د/ علي جواد الطاهر	معجم المطبوعات	مطابع الفرزدق ـ الرياض	ط٢ـ١٤١٨ هـ	١١٥٤، ٤٦
د/ علي جواد الطاهر	عالم الكتاب	المجلد الثالث العدد الرابع	١٤٠٣ هـ	٥١٨، ١٩
السيد حسن أبو الرحى	المنهل	المجلد الثاني		٧٥
الشيخ علي الشيخ منصور المرهون	شعراء القطيف	الجزء الثاني		١٥٠
أ/ أبو بكر الشمري	الفهرست المفيد في أعلام الخليج	الدار الوطنية ـ الخبر	ط١ـ١٤١٣ هـ	١٥٩
الدائرة للأعلام	معجم الكتّاب والمؤلفين	الدائرة للأعلام المحدودة	ط٢-١٤١٣ هـ	٥٢
عبد الله حسن آل عبد المحسن	شعراء القطيف المعاصرون	مطابع الرجاء ـ الخبر	ط١-١٤١٤ هـ	٨٥
السيد حسن العوامي	صحيفة اليوم			

السيدمحمد الصويغ				
الأستاذة/ فردوس الخنيزي	ديوان مدينة الدراري	مطابع الرضا ــ الدمام	ط ١ـ١٤١٤ هـ	٩
د/ حسام سعيد الحبيب	ديوان كانوا على الدرب	مؤسسة البلاغ ــ بيروت	ط ١ـ١٤١٦ هـ	٩
أ/السيد حسن العوامي	من وحي القلم	دار المحجة بيروت	ط ١-١٤٢٣ هـ	٤٠
سعود الفرج	شعراء مبدعون	القطيف	ط ١-١٤١٧ هـ	٣٢٣
فائز المسلم	ذكرى مؤرخ وشاعر	الدمام	ط ١-١٤١٨ هـ	٢٦٣
خالد سعود الحليبي	الشعر الحديث في الإحساء	مطابع الوفاء الدمام	ط ١-١٤٢٤ هـ	١١٢-٤٠٨،٩
أحمد سعيد بن سلم	موسوعة الأدباء والكتَّاب	دار المنار القاهرة	١٤١٢ هـ	٣٢٣
خالد أحمد اليوسف	دليل الكتَّاب والكاتبات	الجمعية العربية	١٤١٥ هـ	١٠٨
د/محمد عثمان الملا	الحكمة في شعر بني عبد القيس	الدار الوطنية	١٤٢٠ هـ	٨٥
معجم البابطين	الشعراء العرب المعاصرين	مطابع الملك فهد	١٩٩٥م	١٨٦
معجم البابطين	الشعراء العرب المعاصرون	مطابع الملك فهد	٢٠٠٢م	٦٠٥

سعيد أحمد الناجي	المعجم الخفيف في تراجم أعلام القطيف	أطياف للنشر والتوزيع القطيف	٢٠٠٦ م	٣١٣
وزارة التعليم العالي	رواد المؤلفين السعوديين	معرض الكتاب	٢٠٠٦م	٣٩،٤٠
الموسوعة	موسوعة الأدب العربي السعودي الحديث	الرياض	١٤٢٢ هـ	٢٩١، ٢٩٢
مكتبة الملك فهد	أخبار المكتبة	الرياض عدد ٣١ رجب	١٤٢٥هـ	٢٢
الشيخ علي البلادي	أنوار البدرين ـ مؤسس الهداية	بيروت ٢٠٠٣م ط١	٣٦٥، ٣٧٤، ٣٩٢، ٣٩٤،٤٢٩، ٤٣٣.	
حبيب آل جميع	معجم المؤلفات الشيعية	ط ١ ١٩٩٧	٤١٤، ٤٧٢، ٤٧٣، ٤٧٨، ٤٧٩، ٤٨٣	
عبدالله بن أحمد الشباط	آفاق خليجيه	ط ١ مطابع الوفاء ١٤١٥	١٤٥، ١٤٦، ١٤٧، ١٤٨	
نزار آل سنبل	أهل البيت في الشعر القطيفي المعاصر	المركز الثقافي للنشر والتوزيع ٢٠٠٣	٣٣٥، ٣٣٦، ٣٣٧، ٣٣٨	
كمال سليمان الجبوري	معجم الأدباء الجزء الخامس	دار الكتب العلمية بيروت ٢٠٠٣م/١٤٢٤هـ	٣٢٦	

الدكتور جودت القزويني	تاريخ القزويني	المجلد الخامس والعشرين	من ٩٣ إلى ٩٩

كما كتب الأستاذ عبد المقصود محمد سعيد خوجه صاحب الندوة الأثنانية الفكرية تقريضاً لبعض إصداراتي نرفق صورة من تقريضه وكتب الشيخ جعفر الربح مقدمة لديواني إيحاءات سماوية سجل في هذه المقدمة رؤياه الأدبية وأنا أعتز بهذه الرؤية الفكرية كما نشرت هذه المقدمة في مجلة الخط العدد الثالث عشر عام ١٤٣٣هـ الموافق ٢٠١٢م مضافاً إلى ما كتبت الصحافة المحلية والخارجية عن هذه الأعمال الأدبية وأذاعت عنها الإذاعات العربية والغربية. كما قرض الأدباء أعمالي الأدبية ومن ضمنهم الأستاذ عباس العسكر حينما قرأ ديوان تهاويل عبقر فقال هذين البيتين:

قرأتكَ شعراً يدقُّ القلوب

وينطقُ فيهِ شعور النغم

وجدتُكَ مثل النسيم الذي

تهادى برفقٍ فهزَ القلمْ

وننقل هنا الرأي الأدبي للأستاذ عبد المقصود محمد خوجه بالنص الحرفي في إصداراتي التي قرأها وهذا النص وليداً لقراءتها

سعادة الأخ الأستاذ محمد سعيد الخنيزي حفظه الله السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

أشكر لكم إهدائي كتبكم اللافتة "تهاويل عبقر" الذي احتوى على ثمان وخمسون قصيدة تنوعت موضوعاتها بين الوجدانية والذاتية والرثاء وتميزت بجزالة مفرداتها ووضوح معانيها والمعري الشاك الذي تناولتم فيه الشاعر والفيلسوف أبي العلاء المعري من خلال اللزوميات واستنطقتم الشاعر على أحسن ما يكون وكان لكم ما أردتم والشعر ودوره في الحياة رومانسيون والذي تحدثتم فيه عن عدد من الشعراء ومؤلفاتهم سائلاً المولى أن يزيد في عطائكم لما يشكله من إضافة قيمة للساحة الثقافية العربية.

ولكم تحيات وتقدير

عبد المقصود محمد سعيد خوجه

كما نرفق صورة من النص الأدبي التقريضي

أعمالي العلمية والأدبية

اسم الكتاب	اسم المطبعة	سنة الطبع	نوع الكتاب
النغم الجريح	دار مكتبة الحياة – بيروت	١٣٨١ ١٩٦١	شعر
شيء اسمه الحب	مكتبة الأنجلو المصرية	١٣٩٦ هـ ـ١٩٧٦ م	شعر
شمس بلا أفق	الدار العالمية – بيروت	١٤٠٦ هـ ـ ١٩٨٦ م	شعر
مدينة الدراري	مطابع الرضا – الدمام – السعودية	١٤١٤ هـ ـ١٩٩٣ م	شعر
كانوا على الدرب	مؤسسة البلاغ – بيروت	١٤١٦هـ ـ ١٩٩٥م	شعر
تهاويل عبقر	مؤسسة البلاغ بيروت	١٤٢٢هـ ٢٠٠٢م	شعر

أوراق متناثرة	دار المحجة البيضاء بيروت	طـ١ ١٤٢٨هـ	شعر
إيحاءات سماوية	مؤسسة المصطفى للتحقيق والنشر	ط ١ ١٤٣٤هـ ـ ٢٠١٣م	شعر
خيوط من الشمس "قصة وتاريخ"	مؤسسة البلاغ – بيروت	١٤٢٠ هـ ـ ٢٠٠٠ م	مجلدين نثر

الشعر ودوره في الحياة:

أنجز منه مجلدين: (المجلد الأوَّل ـ في جزئين) يحتوي على العصر الجاهلي، وعصر النور "الإسلام" والأموي والعباسي، وفترة الفكر الانتكاسية، والجزء الثَّاني يحتوي على دراسة حياة بعض الشعراء للأقطار العربية.

المجلد الثاني (في جزئين) الثالث خاص بشعراء المملكة الرومانسيين والجزء الرابع خاٌص بثلة من شعراء القطيف الكلاسيكيين.

العبقري المغمور	مؤسسة البلاغ – بيروت	١٤٢٤ هـ ـ ٢٠٠٣ م	نثر
ذكرى أبو نسيم	الخبر	١٤٢٧ هـ	نثر
أضواء من النقد في الأدب العربي	مؤسسة البلاغ - بيروت	١٤٢٥ هـ ـ٢٠٠٤ م	نثر

أشباح في الظلام	دار المحجة البيضاء	ط ١ ـ ١٤٢٧ هـ	نثر
المعري الشاك	دار المحجة	ط ١ ـ ١٤٢٨	نثر
دراسات في شعر أبي نواس	دار المحجة البيضاء	١٤٣٠ هـ ط١ ٢٠٠٩ م	نثر
ومضات وراء الغيوم	دار المحجة البيضاء بيروت	١٤٣٢هـ ٢٠١١م	قصة مسرحية نثر
أيام في لندن	دار المحجة البيضاء بيروت	١٤٣٤هـ ٢٠١٣م	نثر
لمحات من وراء القرون	دار المحجة البيضاء بيروت	١٤٣٤هـ ٢٠١٣م	نثر
السفينة تعود	هو ذا		نثر
أطياف وراء السديم	مخطوط		شعر
أيام من الماضي	مخطوط		نثر
من ذاكرة التاريخ	مخطوط		نثر
تأملات	مخطوط		نثر
أحداث تاريخية	مخطوط		نثر

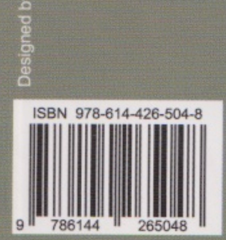
المحتوى

تأملات

لعل من السوانح والخواطر التي تطوف بآفاق نفسي وتلحُ عليَّ وتسايرني في حركاتي وسكناتي هي خاطرة تصور لي ما أقرأه من كتب أو أشعار لمعاصرين أو لماضين سبقوا قرننا بقرون تمثل لي بعض الملاحظات والآراء أن أدونها في كتيب أسجلُ في صفحاته مرئياتي حول ذلك الكتاب أو ذلك الشاعر الذي عصر روحه في حروف سكبها عصارة عقله، فإذا مررنا به وقرأنا تلك الأفكار سواء أعجبنا بها أو لم نعجب بها أو لتطاول الزمن عليها حتى عفّن عليها غبار الدهر، وهي مصفوفة في رفوف المكتبة لا تحركها أنامل، ولا تقرأها عين، وهذا الإهمال الفظيع يضر بتراثنا الفكري لماذا لانخصص وقتاً لنقرأ ماضينا فنشاهد بعض صوره تتمثل بحاضرنا وإن اختلف الزمن وتطورت الحياة.

وهنا أعود بعد هذه التوطئة التعريفية لما أريد أن أسجله من خاطرات تخطر لي عندما أقرأ بعضَ الكتب فأسجلها في مرئياتي وأجسدها في حرف من هذه الحروف راجياً من الله المدد والتوفيق والعون فإنه هو المعين وحده لا شريك له ونحمده على ما أعطى وألهم فإن ألطافه ونعمه لا تحصى فله الشكر وله الحمد.

Designed by **CMYK** Studio



ISBN 978-614-426-504-8

أطياف للنشر والتوزيع
هاتف/فاكس: 8549545 (3) 966+
الجوال: 505868771 - 966+
القطيف - شارع القدس المملكة العربية السعودية
Email: atayaf.pd@hotmail.com

دار روافد
للطباعة والنشر والتوزيع
بيروت - لبنان
ت: 71/868980
darrawafed@yahoo.com

التنفيذ الطباعي: دار المحجة البيضاء